

# قَبْضُ الرِّيحِ

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

دار  
الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة  
تليفون ٣١٨١٠



# قبضُ الرِّيح

بمِ  
ابراهيم عبدالقادر المازني

---

دار الشعب

رقم الإيلاع ١٩٧١/١٥٥٢

## مقدمة

كتب هذه الفصول وغيرها - كثيراً غيرها - في الفترة الطويلة التي كان فيها شبح الماضي - أي نعم ، طيف الماضي - يعايشني ، وكان أقرب جيرانني إلى نفسي ، السماء . وكنت يومئذ - ومازلت - في رقعة من الأرض مدحوة للتفكير والأحلام وللموت . قد طال عهدي بها وإلني لها ليكبر في وهمي - حين يستغرقني روحها - أنني ههنا كنت قبل ميلادي ، وإني بعضُها ، وقطعة منها ، ولو علم الناس . وهي جمة الحالات ، وإن كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغير ، وأقوى ما يروعني من أطوارها ، فقدانها الوعي ، فلو نفخ في الصور ما تنبث . وقد تبدلني كأن يد القدر التي بسطها قد ملتها وانصرفت عنها وشغلت بسواها فيذكرني عليها العطف . وكثير ما خيل لي كأني ألح فيها عروق « العلة الأولى » وشرائنها وأنسجتها ، وإني أحس لحفها وأسمع نبضها . وهي ، على تفكك ذراتها ، كل كامل في رأي معين وفي إحساس القلب . وربما توهمتها مخاً غارياً ينشئ ما لا يندري . وقد يتمثل لي فيها رأي أرضنا - أو ما أحسبه رأيها - في الحياة والمساعي التي لا أكاد أسمعها تقول بلسان هذه الصحراء للناس أو للمقادير .

« ما جدوى هذه المساعي ؟ ما خير أن تزخر على ظهري الحياة ؟ لأي غاية أو في أي سبيل إرهابي وكدي وإملائي على الأدهار ؟ إنه عبث متواصل في الوسع رفع مؤونته بالحو والسلب . وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندي أعدل لو أنها شاعت ألا تكون هذه الحيوانات . »

وما ضربت في هذه الصحراء ، أو صافح وجهي نسيمها ، أو سفت الرياح على رمالها ، أو أدت عيني في عريها الأزلي ، إلا هتف بي من ناحيتها هاتف يقول ابن داود :

« باطل الأباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي دور يجي ، والأرض قائمة إلى الأبد... كل الأنهار تجري إلى البحر ، والبحر ليس يملأ . . . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر . والأذن لا تمتلئ من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس جديد... »

« أنا الجامعة ، كنت ملكاً على إسرائيل في أورشليم ، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . . . فإذا الكل باطل وقبض الريح ! »

وأنا أيضاً كالجامعة وجهت قلبي إلى المعرفة ، وامتنحت نفسي بالسؤال وعملت روجي بالتفتيش « بنيت لنفسي « آمالاً » غرست لنفسي « أوهاماً » عملت لنفسي جنات وفراDIS غرست فيها « أحلاماً » من كل نوع ثمر ... وهذا كان نصيبي من كل تعبي ... قبض الريح ! » .

واستنفذ العناء مجهودي كما تنفذ السحابة أراقت ماءها على الأرض . وكل بما عنده يجود ! زرعت حصي في أرض صفوان وهذا حصادي وقبضت الريح من كل تعبي تحت الشمس وهأنذا أؤديها إلى القاريء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المذل ! وقد خرجت كما سيخرج القاريء وكما سيخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس في يدي شيء .

إبراهيم عبد القادر المازني

## بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة في الأدب ، لأنني كنت أقرأ !  
والقراءة والكتابة عندي نقيضان ، وقد كنت - وما زلت - لأمراً يتعذر  
عليه ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما في فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة  
في ذلك فلم يفتح الله علي بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب .  
وما أظن بي إلا أن الله ، جلت قدرته ، قد خلقي على طراز « عربات  
الرش » ! التي تتخذها مصلحة التنظيم - خزان ضخمة يمتلئ ليفرغ ،  
ويفرغ ليمتلئ ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ في رأسي ، وما  
أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتب ألهم ما فيها وأحشو بها دماغي  
هذا الذي خلقه الله لي خلقة عربات الرش كما قلت ! حتى إذا شعرت  
بالكظة ، وضايقي الامتلاء ، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه  
مثاقلاً متثائباً مشفقاً من التخممة ، فلا ينجيني إلا أن أفتح الثقوب وأسح !  
وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسي : أهذا الذي ركبته الله لك يا مازني بين كتفك رأس  
كرءوس الناس أم معدة أخرى ؟ وأداة نظرو إدراك وتفكير هو أم مخزن  
يكنظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الأحوال بك ؟ والحق أقول إن الجواب  
يعيني ! وإذا لم أكن قد ركبته من الرهم شر الحمير ! فإن الناس  
في الأكثر والأعم إنما يعالجون الكتابة لأن في رؤوسهم فكرة أو خالصة ،  
كائنة ما كانت ، يغنون العبارة عنها والإفضاء بها ، ولست أراني كذلك ،  
ولقد يخيّل لي في بعض الأحيان أن في نفسي معنى معيّن ، ويؤكد ذلك  
عندي ويقرر اعتقادي به ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب  
التمس هذا المعنى أو الخاطر فإذا به قد تبخر ! وإذا بي كباي حين يجلس  
إلى جانبي ويحاول أن يقبض على الدخان الذي يتصاعد من سجاري ، وأنا

أضحك من هذا الذى يحاوله ، وأهوى به وأقول إنه يجرب في عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعنى إلى الكتابة إحساس غامض إلا أنه من القرة بحيث لا يسعنى مغالبتها فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يشب إلى يدى ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وأسرع في الكتابة وأمضى فيها إلى غايتها المقدورة ، شأنى في ذلك شأن الذى يسير وهو نائم ! ينهض من فراشه ويخطو ، ويذهب هنا وهناك ، ويتكلم أو يباشر بعض الأعمال ، ولكن وعيه ليس تاماً ، وإرادته لا تدخل لها في شيء مما يصدر عنه .

وأحياناً أفعل هذا : أسأل نفسي « أفى رأسك شيء ؟ » وأعنى بالشئ ما له قيمة ، لا أى شئ على الإطلاق ، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأنى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن ألقه بين كفى وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا بأس ! القلم حاضر والورق تحت عيني ، فلأقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولأفتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلأ نظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أو لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحياناً ليري أفيها أم ليس فيها ماء ؟؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسى من حين إلى حين كلما شككت وكبر في ظنى أن رأسى قد أصبح فارغاً ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلباً للاطمئنان لا رغبة في الكتابة ولا عن قصد إليها . حتى إذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراصفه تقطر ؛ قلت الحمد لله ! وأنصرت !

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئاً بعينه فيجربى القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أل تريد السفر إلى الاسكندرية فتحملك رجلاك إلى قطار يذهب بك إلى السويس ! وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتك وأنت تكتب ؛ معنى يعن لك فيلهيك عما كنت فيه ويدفعك



من طريقه إلى غير ما قصدت إليه . وقد تأخذ في كلام تحسبه هيناً فتكأءدك  
الوعور وتعاظملك العقبات فتميل عنه إلى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر  
ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله في الكتابة على نية معقودة ثم  
أعدل في بعض الطريق عنها وأتحول إلى سواها ويحيىء الكلام متناولاً طرفاً  
من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزني أن أختزل مضمونه في عنوان فأدع المقال  
بلا رأس وأقدمه هكذا إلى الأستاذ أمين بك الرافعي فيضع هو - جزاء  
الله عني خيراً - ما يوافقه من العناوين !

وأمرى مع الكتب أغرب . كنت في أول عهدي بها - أي منذ عشرين  
سنة أو نحو ذلك - أذهب في أول كل شهر إلى واحد من باعها فيتقدم إلى  
العامل سائلاً عن حاجتي فأبينها له فيرفع رأسه إلى الرفوف ويدور حول  
نفسه وهو في مكانه ثم يلتفت إلى وعلى شفثيه - دون عينيه - ابتسامة جهل  
وغباء ، ويهز لي رأسه أسفاً . فأنجيه عن الطريق وأمضى إلى الرفوف  
وأجبل عيني فيها وأخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الحانوت بأثقل من  
حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر إلى ما فوق الأذنين إن كان فوقها شيء  
يستحق الذكر ! وكنت لا أنخطى عتبة البيت إلا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضي على  
ليلة إلا طلعت في بعضها قليلاً أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسى في وحدتي  
وسميري في خلوتي ، وكنت أستغني بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول  
لإنها « تدخل في متناول الحس ، والعواطف والمدركات وكل ماله وجود  
في العقل » وإنها توقظ الحواس الحامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر  
النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكل ماله قدرة على تحريكها  
وابتعاثها ، وتدريب المرء على الاستمتاع بتدبير عظمة الجلال والابد والحق ،  
وأنها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم  
والحزن والخطأ والاثم ، وأنها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور  
واللذة وتحقق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ،  
وأنها تسد النقص في تجارب المرء وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث

الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً تقبل المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالإنسان حاجة إلى التجريب الشخصي لتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهر » التجريب الذي تمهيداً له الكتب . وإنما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لأنه كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأي قبل أن يتعرفها الذهن أو تتوثر فيها الإرادة ، ومن أجل ذلك كان سواءً على المرء أن تتوثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل هذه الحقيقة ، فإن في طاقة الإنسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتي يعود وكأن له جسماً يحس ويلمس ، فسيان عند الإنسان أن يؤثر فيه الشيء أو مثاله ، لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثلاً على كل حال ، وسواء أكان الشيء حاضراً أم مائلاً في الخيال بصورته ، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحب والإجلال والعجب والشهرة . فكان هذه الرموز هي اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق .

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه ، وكان مثلي كمثل أشعب الذي حكوه أن صبية هتفوا به وأثقلوا عليه فأراد أن يصرفهم عنه فقال هم أن في مكان كذا وليلة فاذهبوا إليها وأصيبوا منها ، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعدو في أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيلة والحسرة والسخر من نفسه كذلك انقلبت عن الكتب ، فلا أبا أفدت شيئاً سوى قمع الشباب وإضاعة فرصته وإراقة مائه في تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغي أن تفهم أو سددت نقصاً في تجاربي أو استطعت أن استغني « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصي ، وشر من ذلك أني اطلمت من هذه الكتب على صمرة أو صور للحياة ليس أكذب منها ولا أبعد 1 ولا نكران إنها أيقظت نفسي وفتحت عيني ونهت حواسي وابتعثت

مشاعري وجعلتني أشد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتاتي مبرراتها  
ولكن أليس معنى ذلك أنها جعلتني أتعس وأشقى مما كنت أكون لو ظللت  
أرتع في بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفر بهذه النعمة التي لم أعد  
بها غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق  
للرياح والمدر ، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد أن فطنت إلى ما أضعت  
من عمري ؟

كم غصت في لجة الحياة فما	فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر	حسبته درة من الدرر ؟
فخل كأس العفاء تسليتي	كنزى وتسحو سلاسل الخبر
ماضني لو جهلت ما علمت	نفسى وما قد أماندى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به	في كبرى الآن أولدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كلفت به	على الذى كان فيه سكوى ؟
أو لو فقدت الذى فرحت به	وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثم صوت تعبد نبرته	إلى ذكر الربيع والزهى ؟
أثم عين تثير نظرتها	أحلام نفسى فى ريق البكر
وتنشر اللذة المضيفة لى	حلماً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمري فى الأرض زينتها	من مسمع فائن ومن نظر
وروضة العيش جد حالية	من زهر مونق ومن ثمر
كانها لافترار بهجتها	تخير نطقاً للمدن البصر
واهاً لقمرها إذا اتسقت	أسجاعه واستراح للسحر ؟
واهاً لسحر فى لحظ نرجسها	يسطو بوقع السجو والفر ؟
واهاً لأيكاتها إذا همس الـ	نسيم فى أذنها مع القمر ؟

لكن أغصانهم يا أسفا  
أصبت في العزم ، لا الشعور فإن  
وإن مددت اليدين خانهما  
بذعرني الشيء كان يجذبني  
أحمل عبثاً من السنين فما  
ولى من الذكريات حاشية  
فهاهما أذعر الشجون بها  
لم لا أبت الذي يقيدني  
إني أراي قد حلت وانتسخت  
وصرت غيري فليس يعرفني  
ولو بدا لي لبت أنكره  
كأننا اثنان ليس يجمعنا  
مات الفتي المازني ثم أتى  
بعيدة من مثال مهتصر  
أدرت لحظي في الشيء ، لم يدر  
عزم الشباب الجريء ذى الأثر  
لشد ما أستجير بالحذر ؟  
عسى وراء الغايات منكدرى ؟  
في حيث أمضى ، محشودة الزمر  
حتى أراها تطير كالشرر  
بما مضى وانقضى من العصر ؟  
مع الصبي سورة من السور  
- إذر آني - صباى ذو الطرر  
كأنني لم أكنه في عمرى  
في العيش إلا تشبث الذكر  
من مازن غيره على الأثر

وما أحسبني بالغت ، فقد مات « الفتي » المازني حقاً ولم يبق منه شيء  
وإني لأمر الآن بالمكاتب فأشيع بوجهي عنها وأغمض عيني دونها ،  
ويردني الكتاب بكرهى فأتركه حيث يقع وأهمله الأسابيع والشهور ، وإذا  
فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أى موضع بدأت ،  
وسيان عندي أن أقرأه من أوله إلى آخره ، أو من آخره إلى أوله أو أن  
لا أقرأه ، وقد تعاودني الحمى القديمة ويتأوني الحنين الماضي إلى الكتب ،  
فأدافع نفسي عنها ما استطعت ، فإن عجزت وغلبت على أمرى طاوعتها على  
حذر وسائرهما متحفزاً ، وذهبت أتخير لها الكتب وأنتنهما ، ومهما يكن  
من الأمر فلست الآن ذلك الذى كان كأنما يعبد مها دمي وأصناماً ، وقد  
اغتنمت أول فرصة منحت فبعثتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً ؟

ولكن الزامر يموت وأصابه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللعادة حكم لا يقوى المرء فى كل حين على مغاليته ، والنفس لا تطاوع المرء دائما على ما يريد لها عليه من الخمود والتبلىد ، وقد يزجج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فإن من الموت أن يستحيل الإنسان جثة خامدة المتقد لا ينقصها إلا الرمس . وما لا يصح سلوى ومتعة قد يصلح دواء ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التلبىد ويخلد إلى الركود . فلا عجب إذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين .



ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الأدب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدبا وفلسفة وهو ليس من ذلك لافى كثير ولا فى قليل . وأحسب القراء لا يعينهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية ، وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولا نستطرد فيها ومنها إلى أبواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبداً (بحديث الأربعاء) الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نشئ فان كتاب الدكتور يضطربنا إلى النظر فى أمور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيما كسر كتابه عليهم من مثل أبى نواس وبشار وغيرهما وفى العصر العباسى كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظره ، وحسبك دليلاً على بغد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبى نواس (أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً وما كان يستطيع أن يكون عذرياً ، وهو الرجل الذى شك فى كل شئ ولم يؤمن إلا بالجنون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج وجناح ، ولم يكن عذرياً

ولم يكن يتكاف أن يكون عذريا وإنما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكفون . لم يكن يتكاف العذرية وإنما كان يهيم باللذة وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر بن أبي ربيعة ) . . . إلى أن يقول « . . إن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل رغم مافيه من منافرة للطبع والخلق والدين إلخ » .

أما نحن فقد قلنا في المقدمة التي وضعناها للجزء الثاني من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسن الناس وأعمقهم حكمة وأصحبهم إدراكا لحلال الخير وخصار الفضل - نقول للفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤسهم إنكارا فان الشعر أساسه صحة الإدراك الأخلاقي والأدبي . ولست بواجد شعراً إلا وفي مطاويه إدراك أخلاقي أدبي صحيح وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الإدراك الأدبي تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارئ فيحسب أنا نقصد إلى إظهار الإحساس الديني في الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره ويتابعه ، ولا ينبغي كذلك أن يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملي لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الإنجليزي وأبو نواس وامرؤ القيس متقاي وجوه الحياه ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الإدراك الأخلاقي والأدبي عظيم ، ولئن كان لهم معاييب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق أن تنظر إلى ما وراء ذلك . فان أبا نواس أصبح مبادئ وأتق ضميراً من البحتري على كثرة ماتقروءه للأول مما يروع ويهزل ، وكذلك امرؤ القيس أفطن إلى معاني الفضيلة وأعظم رجولة من أبي تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على جبهه الحمر واستهتاره بها ونجلعه فيها بالرجل الناصب الفضيلة إلخ » إلى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك في يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا إلا اقتناعاً بهذا الرأي الذي أشرنا إليه

إليه في ذلك الوقت إشارة من لا يحس أن المسألة تحتاج إلى  
إفاضة .

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى  
الخلافا بين الرأيين ولتدرك ما في المسألة من دقة وتعويض ، لا يسع المرء  
حياهما إلا أن يسأل الله السلامة .

## على شاطئ بحر الروم

بين البحر والصحراء!

أكتب هذا الفصل على شاطئ البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت الذى قبله على حدود الصحراء ، وللكلام كما للناس ، حظوظ ، والمعاني والخواطر أرزاق ، ولقد أذكر أنى كنت ذاهباً إلى مصر الجديدة مع طائفة من الأصدقاء فى واحد منهم شذوذ وكان يكتب فى الترام ! وأنه ليكتب كلمة « السوود » إذ انطفأ النور فخط « دالا » فى النور و « دالا » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « نخوم العالمين » لكان الأرجح فى رأى والأقرب إلى الاحتمال أن يجرى القلم بغير ما يسطره الآن ، فإن النفس كالزجاج الحساس تنطبع عليها وترسم فيها صور ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول غير ما أنا قائله ولكن المقادير قذفت بى إلى البحر ، لا فيه والحمد لله ، فتجلل العزم ، ومسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خيرت لاخترت مقامى القديم ، ولأثرت أن أكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى الأسبوع المنصرم : إلى يمينى الصحراء ، وإلى يسارى المقابر ! واحدة تعلو بى ، وأخرى تهبط ، وإذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردت به إلى الدنيا ومصائر الخلق فيها هذه الأجداث المتلاصقة والعوالم الانسانية التى خرجت من التراب وعادت إليه وتحملت واستسرت فيه :

غير أنى ألفت نفسى جالساً على شاطئ بحر الروم أنظر إليه وأتأمل عبابه المزبد وموجه المتجدد ، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها



المتوهجة ، وأواذيه كقطع الجبال المتقلعة تندفع إلى الشاطئ وتسبق سيفه فيغيب بعضها في بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على الرمل ! ولا أدري أذكرني هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الأفاصيص التي كانت تسلينا وتروعا وتعمر بها فضاء حيواتنا الصغيرة « العجائز من ذوات قرابتنا أو جيراننا ، إذ يجلس الطفل منا إلى إحداهن ويرهف أذنيه ويود لو صارت كل جارحة فيه مسعاً ، وقلبه الصغير يخفق وكلما أغربت العجوز في القصة وتبسّطت في وصف الجن والمردة أو السحرة وأسهب في سرد أعمالهم ، أدار هو لحظه خلسة في المكان كالذي ينفضه بعينه أو يخشى أن يظهر له عفريت من أحد أركانها ، وراح يدنو منها ويزحف إليها حتى يلمسها ، على حين كانت الفتيات الناهدات متكئات في سكون على حوافي النوافذ أو الشرفات ، ووجوههن الصبيحة ، التي كأنما غلّتها الرود ، يضيئها القمر الواجم الساري في حاشية من النجوم اليتيمة العذراء التي ينقصها ، مثلهن ، الحب !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شيء فيه كما في العصر الخالي إلا المدينة القائمة على ساحله فقد كانت في بعض أيامها الخوالي تشغل مكاناً أينما فلم يبق لها من سالف عزها إلا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على ما يظهر أن يتراجعوا إلى الاسكندرية بعد أن ثل الزمن عروشهم ونفاهم وشردهم عن ملك السماء ، ولم يرض ملك السماء ذو الخصل البيض أن يأوى إليها ويعوذ بها بعد أولمبيا ، وأثر عليها التشرّد بصاعقته الحامدة ، وضم بنفسه عليها زيوس وتجافى عنها وإن كان لم يرياً بنفسه عن عزل أبيه وطرده أعمامه وعن الإستهلاك بين الغلمان الذين كان يهبط إلى الأرض على خلقة النسر ليخطفهم ويصعد بهم إلى ملكوته ويكايد بقبلاهم زوجه ! وكم عدلته في جنميد وأنبتة على مشاربته في كأس واحدة فكان يقول لها مستراً لو شربت بعده من هذه الكأس لأقصرت ولم تلرمي ! وشاهدي على صحة الرواية « لوسيان ! » :

وما وقفت قط على هذا البحر إلا أحسست أنى مثله ، وإلا هممت أن  
أنظم هذه الأبيات مرة أخرى :

أنا البحر - لا كرمأ ! - إننى	تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولكننى البحر ما إن له	قرار وما أن له موئل
وتجلده الريح إن زمزمت	جنوب لها أو زفت شمال
ويجذب أمواهه كوكب	ويلفغها وهو لا يحفل
وفى قاعه دره راسب	ومن دونه الخطر الأهل
وتعتام صفحته ركدة	وفى سره ثورة تشعل
ويلتمس الشط مستروحاً	فيهزمه الرمل الجندل
أنا البحر ، لكننى غارق	بنفسى فمن ذا عمى ينشل ؟
أصارع تياره جاهداً	وفى أذنى زعده المرسل
وأومى إلى الناس لو أبصروا	وقد يخطئ العيون من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة	وناء بما يحمل المثلث ؟
وهل شاهد ؟ أن بى حاجة	إلى شاهد صادق يعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبي بما أثار البحر من خليط الذكريات  
وحرك من الآمال ، فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعداً عليها ودهورت  
هذه الأبيات فى أشداق وانطلقت أنشد الريح إياها ! ! وعن عسانى أنشد  
سواها ؟ فى أى إذن غير لإذنأ أفرغها أو أهمس بها ؟ فى أية نفس إنسانية  
أجد لنفسى كهفاً يتجاوب بأصداء عواطفى وخوالجى ؟ عند من من الخلق  
أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين فى الناس وردتان تميلان معاً للنسيم من حيث جاء ؟

كما تساءلت قديماً ! ثم أهبت بقصائدي التي لم أنظمها — قصائدي  
الجياد التي لم تند فط عن صدوري وإن كانت تعمه ، ولم ينطلق بها  
لساني وإن تكن على طرفه ، والتي لولا مشيئة الأقدار لذهبت بأصيل  
هذه الشمس الغاربة ونسجت منها تاجاً لرأسك الذي يتوسد التراب ،  
ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم الليل المتواضعة ، ثوباً متألقاً  
ينسجم على كتفيك وينسدل إلى قدميك !

\*\*\*

وغابت الشمس وانتشرت على الأرض غياهبات الطفل ، فعدت إلى  
مقعدى أنظر إلى الموج المشرتب ، وجاش صدري مثله وجعلت طيوف  
الماضى تبرز من ظلامه وتخطر أمامي ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ،  
ولكن طيفاً واحداً ظل ماثلاً لعيني في حيناً أدرتها ، ومالئاً شعاب نفسي  
بالإحساس به ، ومناجياً لي من زفيف الرياح وتهزم الأمواج ، وفيه  
وفي تمثل الحب المفقود والأمل الضائع ! وخامرني هذا الخاطر وألح على  
حتى خلقتني جثة غريق ردها الموج الطاغى إلى رمال الشاطئ ! واجبني  
هذا الوهم حتى ملت عن الصخرة إلى الرمال ورددت عليها وأومأت إلى  
الأمواج أن اركدي فقد ذهب كل شيء : انتسخ الأمل وغاض معين  
الحب وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملقى إلى جانبي ، وخططت به كلمات على الرمال  
البليلة ، غير أن الأمواج طغت عليها وغسلتها وعادت بها ولم تترك لي  
حتى اسمي الذي رسمته في آخرها ! فيأما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى  
هذه المياه المتحدرة !

وبأى شيء إذن أكتب ؟؟ أقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه في بركان  
وأسطر به ما أريد على صفحة السماء ليبقى ! ؟ !

\*\*\*

ولكم وقفت مل قبل على شاطئ هذا البحر بعينه ، وفي مثل هذا  
الأوان ، مجيلا عيني في قبة السماء اللازوردية ، ومرسلا لحاظي في البحر  
والرمال والصخور ، وقائلا لدوات المناقير السوداء إذ تعب بها من الماء  
وتلفظ ما يتقاذف منه : « أينها الأطيوار ! أن حياتك مرة مشتوة كطعامك  
وشربك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك مما أعطانيه الله ، وأن أنشئك ما أشمه  
من الأزاهير والرياحين ، وأطعمك مما آكل من لحم غريضة وخضر  
مستطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر وأتمتع به من لذات الحب  
المتبادل ! فأن لي شريكة تحبني ، واني لأراها الآن بعين الخيال مظلة من  
النافذة منتظرة أو بتي إلى وكرها ومشتاقة رجعتي إلى عشا » .

وكانت الأطيوار تقضي وطرها وتذهب عني ولا تحفل غبطتي ولا تبالى  
طعامي ورياحين أنفي وعيني ونفسي ، وما أظنها الآن إلا قائلة لي « يا من  
كان يفاخر بغيظه ماذا أنت اليوم ؟ ماذا صنع الله بآمالك التي أنشأتها  
وربيتها واعتزرت بها ، وأحلامك التي نسجها قلبك حول حياتك ؟ أنظر  
الظلمة التي تغشى ذمئك ! وتأمل الخفافيش التي تمرح فيه ! أليس الماء الملح  
الذي نكرع منه وقدائف البحر التي نلتقطها أهنا وأرغد ؟ » :

فأطرق وأقول : أى أى والله صدقت ! ولشد ما ما أتمنى أن يكون لي  
منقارك الأسود !



كلا ! صحرائي أرفق بي من هذا البحر العاتي الذي لم يتغير منه شيء ،  
والذي يهبج النفس إلى ما بها . ويعديها ، فتجيش مثلة وتتدفع فيها العواطف  
وتتلاطم وتترأخ ، ومن لي بالقدرة على نقل هذه الصحراء التي ألفتها  
وأحببتها ، معي في حلي وترحالي ، وفرشها وبسطها حوالى في حيثما أكون  
من الأرض ؟ ؟ نعم لبت هذا في وسع إنسان ! ! إذن لاستطعت أن أطويها

كلما غادرت بقعتها ، وإن الفها مع ثيابي وأشياي في حقيقتي ، حتى إذا  
 تزلت مكاناً واستوحشت نفسي أنست بأن أخرجها وانشرها أمانى وأتأملها  
 وأذكر بها ليالي فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور وحزن ،  
 وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أو بى منها ؟ مالى وللماء  
 الذي لا تطمئن إليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك يقلب فيه القديم  
 جديداً . والماضى مقبلاً ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفتنى فى بعض ؟؟  
 ولعل السبب فى حبها وإيثارها إن بى مشابهة منها ! وأنى أجتلى فى انهساط  
 رقعتها وتراعى أطرافها وتقاذف أرجائها وجديها وعريها وتجردها من كل  
 زينة تحفل بها وقع الأرض الأخرى ، صورة من نفسى التى تبسط للحياة  
 ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيا بها  
 عماراً ، وعسى أن يكون كلفى بها لذكريأتى ومعاهدى فيها ، وعلى أنه أى  
 داع يستوجب أن أعلل هذه « العاطفة » التى انطوى عليها للصحرء ؟؟

ولما كنت مع الأسف لا أستطيع أن أنقلها معى إلى حيث أذهب فلإنى  
 اكر إليها راجعاً على جناح الخيال ! وأراها بضمير الفؤاد كلما خفيت عن  
 عيني . وإنى الآن لأتلفت من البحر إليها وأنقل عيني فى جنباتها واسرح  
 طرفى فى أرجائها ، وحسبك من قوة شعورى بها . ومن فرط استيلائها  
 على خاطرى واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الأبيات فى بقعة منها  
 فيها آثار بلدة الفسقاط ، أناجى بها ليلة مهرتها بها وعهداً كان لى فيها :

أيا بلدة الفسقاط ما أنت بلدة  
 ولكنما طيف لمؤتلف الخلفض  
 طواك قضاء الله فى الأرض حقبة  
 وانشرك الإنسان نقضاً إلى نقض  
 خطوط وأنقاض كما جاهد الفقى  
 ليحيى ذكرى وهى تمنع فى الغمض

خرائب من حولي وفي النفس مثلها  
وأهل منها ، ويل بعضي من بعض !

وكم نلت نفسي بعض أدراس نؤيها  
فأقررت حتى كان يفرغني نبضي !

قضيت بها ليلا طويلا قصيره  
وهل تقتصر الليلات من شدة الخفض ؟ ؟

فوا أسفا ! لو ههنا كنت لأنثى  
قصيراً على الليل ذو الطول والعرض

لأوحشني لما نلت منك رقعتي  
ولم تؤنمي ذا وحشة في حشي الأرض

آسفة للموت أم أنت يا ترى  
أراحك مني الله ذو البسط والقبض ؟

فأنت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المائج ، ولا عجب !  
فإن نفسي كما قلت بالصحراء أشبه وإليها أقرب !

## نظرة أولى

في كتاب حديث الأرباء

كلمة في الأسلوب أولاً . . .

لنا في الأسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا إليه في صدر حياتنا ، وثبتنا عليه إلى يومنا هذا ، ولسنا ننخذ من الثبات على رأى مفخرة ، فإنه لا يخفى علينا إن هذا « قد » يكون مراده في بعض الأحيان إلى الإفلاس العتلى - ان صح هذا التعبير - أو إلى ضعف الخيال ، أو غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه إذا شاء ، فقد علمتني الأيام أن أكون أرفق بنفسى من إن أرهقها أو أحمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء ! ولماذا لا يتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟؟ والله ، فاعلم ، معشر فقراء العقول ، وفرح أحدهم أحدهم أن يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيما نرجو !

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح ما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد أن المسألة أدخل في باب البديهيّات من أن تحتاج إلى إفاضة أو تحتمل اسهاباً ، فنقول أن الغرض الأول من الكتابة على العموم هو الإفهام أو نقل الخاطر من رأس إلى رأس ، والخالصة ، كائنة ما كانت ، من نفس إلى نفس ، ومعلوم أن الألفاظ ليست هي المعاني وإنما هي رموز لها ، تدل عليها وتشير إليها ، كما تفعل إماءات الخرس التى يتفهمون بها ونظراتهم وحركات وجوههم وأصواتهم القليلة التى يستطيعون إخراجها ، ولو إن اشارات الخرس كثيرة كالألفاظ فى اللغة ، لو فت بكل غرض تعين عليه الألفاظ ولاغنت غناءها ، وغير منكور أن الألفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ،

وإن المعاني على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لامعدي  
عن العناية بانتقاء أشف الألفاظ عن المراد واحكمها أداء للمقصود ، وإلا كان  
الكلام لاخير فيه ولا طائل تحته ، وماذا عسى أن تكون قيمة كلام يودى  
الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه أو سامعه إلا كما يرى المرء في الضباب  
الكثيف ؟ ؟

فالإبهام أو نقل الخالصة على العموم إلى نفس أخرى هو الغرض الأولى  
من الكتابة على وجه الإجمال ولكن هذة ليست إلا درجة أولى فوقها أخرى  
يحاول من بسميهم الناس أدباء وشعراء أن يرقوا إليها ، وهى طبقة الكتابة  
الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجرد الإفهام وإيلاج المعنى أو الخطاط ذهن  
القارئ بل التأثير ، وكما أن الإنسان لم يكتف بالأصوات الكلامية وأبى إلا  
أن يغنى وأن يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة إلى ذلك أو الرغبة فيه ، بتوالي  
صوتية تطربه وتشجيه ، وكما أنه لم يسعه أن يقنع من المساكن بما يقيه الشمس  
والرياح والأمطار والضواري ، ومن الثياب بما يعينه على احتمال الأجواء  
المختلفة ويستره ، بعد أن أرهقت الحياة إحساسه ووفقته ، ومن الطعام بما يسد  
الرمق ويدفع غائلة الجوع ويؤتية القوة ، ومن المراكب على أنواعها بما فيه  
والكفاية فحسب ، نقول كما أن الإنسان أبت له طبيعته التى ركبها فيه خالقه  
إلا أن يجاوز ما تتطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه  
وفى كل شىء آخر ، كذلك لم يطق صبرا على الاكتفاء من الكتابة بما تبلغ  
إليه من الأغراض الأولى ، وطمع فيما هو أكثر من ذلك وبغى ما وراءه  
فنشأ الأدب .

وليس من الضروري أن يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة  
والتهذيب ليطلب الفن فى حياته ، فإن الإنسان حيوان فنى ، وإنك لتجد  
الرجل الأمى الكثيف للعقل « السميك » الوجه يضفر شعر حماره ويفرقه  
يرسله على صفحتى عنقه ويفضض له لجامه وينذهب سرجه ويركبه مترقفاً



ويعيشى به مختالا وينزل عنه ويسايره وينظر إليه بادياً من بعيد ومن قريب ويربته ويلطفه ويمسح له وجهه وقد تفيض نفسه سرورا بمنظره فيقبله ! ؟ ولو أنه كان لا يتخذ إلا مركبا يريجه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه أن يحليه ولما عنى بتجميل أدواته من سرج ولجام وغير ذلك ، وباراحته جهد طاقته ، وبعلفه ما وسعه الإنفاق ، فهي عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العناية بتجميل أناته !

ولكن الحمير ، والحمد لله ، ليست كل ما يمكن أن يكون مظهر الهداه العاطفة الفنية ! وما استطاع في عالم الحمير وأشباهها من أبناء أبينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له استطاع مثله في عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير ، وما منا إلا من يرغب أن يكون فنه أفعال باللب وأسحر للقلب وأملأ للعين وأوقع في النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها ، وإنما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور ، وما يوفق إليه من الإحسان والتجويد ، ولا بد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد . فإن الألفاظ موحودة ، وهي ملقاة في طويقنا جميعا وعلى طرف كل قلم ولسان ولو أن العبرة كنت بالألفاظ وحدها . وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان أكبر الأدباء هم جماعة اللغويين والحفاظ ولكان ابن منظور والفيروزبادي مثلا شيخى أدباء العرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى أصوات ، وليس يعنى أحداً أن يتوفر عليها ويحذفها ويمهر في توقيعها ، وقد لا يعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة أو كثيرة ، ولكن ليس كل أحد بمستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر أو شوبان ، والتصوير أيضا أصباغ وألوان ، أو قل - إن شئت - إن هذه هي مادته ووسائله ، ولكن العلم بها وبأصول الرسم وقواعد ليس حسب المرء ليكون مصورا حتى من الأوساط فضلا عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الأمثال مما هو ألصق بحياتنا اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلا وقل لى لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجار ؟ ما السر في أن واحدا يخرج قطعة

تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتتمهل عندها كل عين ، على حين يخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعة ودربة عليها مالا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعة منجورة وأخشاباً بعضها إلى بعض والسلام ؟ نريد أن نقول أن فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبعياً وأنه — ككل فن أيضاً — لا غني عن الجمال فيه ، وماذا يكون قولك في رجل يزعم أن سيغنيك ثم لا يسمعك إلا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ أو في آخر يقول لك هذه صورة فنية فإذا نظرت إليها لم تلاحظ فيها ما يميزها عن النقل الفوتوغرافي ؟ وكالنقل الفوتوغرافي الكتابة العادية التي لا يقصد منها إلا إلى الإفهام ، وكالتصوير الفني لغة الأدب .

ولا يفهم أحد من كلامنا أننا نقصد إلى التكلف وإثقال الكلام بالحلى والزينة ، فما يخطر لنا شيء من ذلك ، وإنما نعني أن الأدب فن ، وأنه لابد في كل فن من الإحسان والتجويد ، ولكل امرئ طريقة هوله مؤثرها أو موفق إليها لا يبرز المعنى في أحسن معرض ، وليست المزية في التأنيق والتجبر فإن للجمال العاطل أيضاً موقفاً حسناً وروعة ونضرة بل المزية في إبراز المعاني في أحسن حلها كيفما كانت ، وكل ميسر لما خلق له ، فواحد يوشى الكلام ويطرزه ، وثان يرسله غفلاً ، وثالث يدق لفظه ويشف حتى لتتخطاه العين كأنما يعرض لك المعاني في ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره في قوالب ملئت قوة وجمالاً وهكذا . والإحسان في كل ذلك والقدرة عليه ، ملكة لا تحصل بالمعاناة ولا تنهياً بالدرس والتحصيل وأن كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأما رجل زعم نفسه كاتباً أديباً وخلأ كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به .

والآن ، ما رأينا في أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ ! الحق أن هذا الموضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفي عزمي أن أفيض في بيان رأيي في الأسلوب ولكنني لم أكّد أسود بضعة سطور حتى

ألفيت نفسي أوجز وأوجز وأوصد كل باب موارب في طريقي وأضيق دائرة البحث ثم إذا بي أسأل نفسي ما رأي في أسلوب الدكتور ؟ ولقد تقمصني والله عفريت النقد ! وإنى لأحس أن عيني قد احمرنا ، وبلغ من إحساسي بذلك أو توهمي إياه إنى أهم بالتطلع إلى وجهي في المرأة ! ولا أكنم القراء إنى صرت أو من بأن لكل منا شيطاناً ، وأحسب شيطاني من أخبث الشياطين ، فإنه يزج بي في مآزق لا أرضاها لنفسي لو كان الأمر لي ، وإن على مكنتي لأكثر من خمسة عشر كتاباً أستطيع أن أتناولها بما شئت من النقد وأنا آمن أن ألقى أصحابها إذ كنت لا أعرفهم ، ولكن شيطاني الخبيث ظل يخاينني بكتاب الدكتور حتى أخرجه من بين أخوانه وقلت له ، « تعال يا هذا » وأخذت أقلب صفحاته كما يفعل المرء بالحروف يريد أن يشتريه لعيد الأضحى ؟ ! والحق أقول إنه أعجبني ! وأنا ألقى الدكتور كل يوم وأحادثه أكثر مما أحادث نفسي ، ولكم قلت لنفسي وهو لا يدري « لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور إلى سواء ، فإن للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل أن تلقاه بوجهك هذا إن نقدته » ثم لا أكاد أخلو بنفسى حتى يهمس في أذني ذلك العفريت اللعين : إن الأدب فوق الصداقة والزمالة ، وإن بروتوس كان يقول « إنى أحب قبصر ولكن رومية أحب إلى » وإن لك كتاباً كما له كتاب فلينقده إذا أحب ، وليس من شأن النقد الأدبي أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتي :

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكي الفؤاد جريء القلب ، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وأنفته ، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاءه ، ويثقل عليك أحياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف أن يملئ كتبه ورسائله ومقالاته ، فإن كتبه وحديثه ، حين يجي ، في مستوى واحد ، كأننا ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد في أحاديثه ما تجده

في كتابته من الخصائص والشيآت ، ويندر في غيره مثل ذلك ، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول مسافة بين ما بين أولها وآخرها ، وإن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما ، كما هو الشأن في الخطابة ، ومن هنا كان أسلوب الدكتور طه خطائياً ، أو قل إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها أوضح ، فهو في الأغلب والأعم يوجه الخطاب إلى القارئ كما تفعل حين تحدث جليساً لك ، ويقصر جملة ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى وأنت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ، ويومئ بأصبعه لما وصل إلى تلك إلى آخر ذلك .

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة ، وأحسب إنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل ولم يكتبها ، لما جاءت إلا كما هي الآن ، ومن شاء أن يكون منصفاً وأن يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة .

« إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ؟ ولا أراها إلا خطباً مدونة . ولست أريد أن أقف حتى هنا ، بل أزيد على ذلك وأضيف إليه أنها خلقت من مزايا الفنين جميعاً . ! فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يملأ إملاء ثم لا يعود إليها بتنقيح أو تهذيب ، ولو أنه كان يتعهد بها بعد أن يملأها بشيء من الإصلاح خلقت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق في قوله « إني ما كتبت فصلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص يحتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاج لي من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى إذا فرغت

منه ونشرته السياسة عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه مستحيماً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح ، والأيام تمضي والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائماً بيني وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثلى هذا في مثل هذه الأيام التي نعيش فيها ؟ » :

وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يملها على أنها خطب تلقى بل على أنها مقالات وفصول تقرأ ، وإن كانت طبيعة اعتياد الإلقاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة إذا قلنا إنها خالية مما لم يتحرره فيها : أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها في نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرأونها ولا يسمعونها يلقيها ؟

« ولا شك أن أظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منها بسبيل ، وعندنا أن علة ذلك ليست فقط إنه يمل ولا يراجع ما يمل بل الأمر يرجع في اعتقادنا إلى سببين جوهريين أولهما أن ما أصيب به في حياته من فقد بصره كان له تأثير لانستطيع أن نقدر كل مداه ، في الأسلوب الذي يتناول به موضوعاته ، وفي طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فإنه أعرف بنا من أن يشك عطفنا » بل نحن أعلى به عيناً وأسمى تقديراً من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء إذا حيل بينه وبين المراتب ضعف أثرها في نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغني في إحضار الصورة

المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد إلا الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثاني هذين السببين أنه أستاذ مدرس وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط في الإيضاح والأطناب في الشرح ، والتكرير أيضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : وأعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح . وبعبارة أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص ، وأن يكتفى — ما وسعه الاكتفاء — بما لا عسر في فهمه ولا عناء في تلقيه . وتلك آفة التدريس ولولا أنى أعرف كلفه به وإقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحتني » .

قال المازني : وهنا صرف الله عن سوء واذهب عن الشيطان فوضعت القلم وأنا أحمد الله أن لم يستكتبني الا هذا التحليل البريء .

## آراء شتى

في كتاب « حديث الأربعاء »

مما يحبني في الصحراء أن لي فيها سميرين: أحدهما رجل ساذج لا يزال على الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة على خديه ! وخير ما فيه أنه يسمح لي أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ، بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله مثل الاطار من هذا الشعر المفتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى إلى الحاجبين وتحفي حتي الأذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف في صديقنا الدكتور طه حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابه في نفسه روعة وحرمة ، إذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد إليه كلتا يديه ، كالمسول حين تدفع إليه صحناً فيه طعام ! وتناولوه مبسلاً محرّكا شفّتيه بما شاء الله ، وسبحان الوهاب وأمسكه مقلوباً ! فإن صاحبنا بفضل لله أي ؟ ؟ وأخذ ينظر إليه وينغض رأسه المثلث بالعمامة ويسبّس بشفتيه إعجاباً ، وسر ذلك كله أنه يعتقد — على ما فهمتني ! — إن الدكتور لا يتكلم الناس إلا يوم الأربعاء ! ! وأنه يتناول في كتابه سيرة وإلبة بن الحجاب رضي الله عنه ! وحماة عمّرد قدس الله سره ! ! وأبي نواس القطب الأعظم ! وقد توسل إلى مرة أن أقرأ له شيئاً من فيض الدكتور فتعمدت أن أنشده للنواصي هذه الأبيات :

مالي وللعاذلات زوقن لي ترهات  
سعين من كل فج يلمن في مولاتي  
بأمرني أن أخلي من راحتي حياتي

وذاك مالا ولالا يكون حتى الممات  
والله منزل طه . والطور والذاريات  
الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات  
ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امسكت لأن الرجل كان قد سرى في مفاصله كحميا الحمر فجعل  
يدق ركبتيه بكفيه ، ويمز رأسه في كل ناحية هزاً عنيفاً أشفقت عليه منه  
وخفت أن ينكسر عنقه . ومنذ ذلك الحين صار النواصي قطباً والدكتور  
ولياً نفعنا الله بها . آمين ! وبلغ من أكباره لصديقنا وحسن اعتقاده  
فيه أن سألني أن أشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وها أنذا أؤدي الرسالة !  
فهل بلغت ؟ اللهم أشهد !

وثاني السمرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! وأي غرابة في ذلك ؟  
ألا يتخذ الناس الكلاب ويصطحبونهم في غدواتهم وروحاتهم ؟ ألم يكن  
آباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتي الققط ؟ والسحالي كثيرة في صحرائي  
هذه . ويظهر أنها أحست مني الحب لها والشوق إلى الاتصال بها فإ  
خرجت إلى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت إلا برزت لي السحالي  
من الشقوق وراحت تدور حولي مطمئنة غير وجلّة ، وتخطر أمامي وترفع  
لي ذيلها بالتحية ؟ وبعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما تري على  
آثار آباؤنا الفرعنة . وما يدرينا ويدريك ؟ لعل ههنا هيكلًا قديماً مدفوناً  
ولعل هذه السحالي كهنة مسحورون ! فإن صح هذا فقد تكون على هذه  
الديول القصيرة أسرار عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال  
« بروسيد » لجللنا من أبناء القرون الحالية وحقائق الطبيعة الماكرة  
ما ينقب عليه أمثاله عبثاً في فدادن الصعيد !

ولا يد لها والفتها إياي واطمئناتها إلى من سر ، وأحسبه أنها لمحت  
في مشابهة منها ! أو كأنني بها تعتقد أنني كنت سأخلق على صورتها ثم عدل



بي خالتي ، مجلت حكمته ، إلى ما هو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسي !  
فإن كان هذا هكذا فلعله السبب في أن عيني تقع على الشقوق بسرعة ،  
واني كلما أمسكت عصاً ألفتني أعالج أن أغرسها في الأرض أو أن أحفر بها  
في جوفها ، ولكم فكرت في هذا فتمنيت أن يتيح الله لنا عالماً ذكياً لبقاً  
يثبت تناسخ الأرواح ! إذن لكان هذا أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألاحظها وأجعلها قيد عيني كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامي  
ولقد خيل لي يوماً ، وأنا أرامق واحدة منها ، أنها أطربت قليلاً ثم رفعت  
رأسها الدقيق وحملت في وجهي بعينين خلتهما عيني كاهن مسحور ، وقالت  
لي بصوت أجش يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشد جهلكم  
وأقل استغناءكم عن الكتب أو ليس هذا الذي يمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم  
غير إنني لا أقرأه لا تعلم منه بل لأنقده » فابتسمت كالساخرة وقالت « وما أشد  
غروركم أيضاً ! » ثم أمالت رأسها وأغمضت إحدى عينيها وسألني بلهجة  
مبطنة بالزراية « وأى كتاب تقرأ ؟ حدثني » فقلت « هذا كتاب وضعه من  
يدعي الدكتور طه حسين في بعض من كانوا يدعون أبا نواس وبشاراً  
والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيما أرى من هيئتكم ، مغموح شامل الذكر  
لم ينتشر به الصوت إلى عالمك ! » فدارت حول نفسها من فرط الضجر  
دورتين أو ثلاثاً ثم لفت ذيلها حتى أدنته من رأسها ولبتت هنيهة تتأمل  
نقوشه الخفية السر ، ثم التفتت إلى وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت  
« استاذ في الجامعة يدرس الأدب والتاريخ أو كليهما أو لا أدري ماذا ؟ »  
فبدأ عليها الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت  
« أدب ؟؟ وماذا كانت تخسر الدنيا لو لم يظهر فيها أدباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم  
تخلقوا فيها يا أبناء آدم ؟ أكانت تكف الأرض عن الدوران ؟ أم كانت  
تستوحش خلوها منكم رائحين غادين فوق ظهرها ومن جثثكم المرمية في  
جوفها ؟ ودكتورك هذا الذي يدرس في الجامعة هل يستمع إليه أجد » فقهرت  
فغيظت وابتدرتني بهذا التعنيف « ماذا يضحكك يا هذا ؟ » فقلت « معذرة

سيدتي إن كنت أسأت الأدب ! نعم يذهب إليه الظاء إلى المعرفة ليكرعوا  
من معين علمه وأدبه . ولا نكران أنه ليس سوى إنسان ، لا سحلية ، ولكنه  
يعرف بعض الشيء . « فقاطعتني بقولها « أجنى ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون  
انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل ما عندكم من الكتب ؟ فحز في نفسي هذا  
التحقير الذي تلج فيه ونهضت عن كرسي وقلت « إني أحتج يا سيدتي على  
هذه اللهجة وأؤكد لك » .

\*\*\*

« أتكلّم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً إلى مصدر الصوت فإذا قريب لي ينظر إلى قلقلاً وقد  
زوى ما بين عينيهِ ! فعدت إلى كرسي وعالجت نفسي حتى ثابت إلى ثم  
شرعت أطمئنّه ولكن هيهات . !!

\*\*\*

وقد كففت بعد ذلك عن محادثة السحالي العالمة واعتصمت منها محادثة  
القراء . . . ! غير أن أذني ما انفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا أو  
تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » وإني  
لأردد موئلاً هذا الآن وأعيده على سمعي ويرتلني ويكوي غروري الجنسي  
وكبريائي النوعي أن يكون الجواب سلباً قاطعاً ونفيّاً جازماً ، أي لا شيء !  
فأما الدنيا فلا تخسر شيئاً على التحقيق . وأما الناس فهمهم كأجهل ما كانوا  
أو كأكل ما يمكن أن يكونوا علماء ، فما أرى هذا . يقدم أو ذاك يؤخر .  
أليس المناء الشامل هو المال على كل حال ؟ أجيال تمضي وأخرى تأتي ،  
كالحيلالات التي تراءى للحالم ، حتى إذا استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة  
تحلم بنا الآن ثم في الصباح يحلمو رأسها من أشباحنا ! ولعن الله السحالي  
فقد سودت بسؤالها عيشي حتى لقد صرت كما أقول :

أرى رونق الحسناء في ميعة الصبا      فيوضع بي شؤم الخيال ويعنق  
ويشهدنيها في التراب مرمة      وقد غالها غول الحمام الموفق !



ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا :

هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيرا ؟ أكننا نكون  
أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! وأذكر أن الأدب العربي ليس إلا بعض  
الأدب العالمي ، وإن الدكتور لم يتناول في كتابه سوى جانب واحد من  
فترة من عصر من عصور الأدب العربي . والجواب على هذه الأسئلة التي  
أوحت بها إلى السحلية اللعينة ، نعم ولا . واعني بذلك ان الدكتور لم يزدنا  
علماً بالعصر العباسي ولم يضيف إلى ما نعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب  
هذه المقالات لما فاتنا شيء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات  
كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأقنى لنا العلم به والاطلاع  
عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذي رجناه . والواقع اننا جميعاً  
نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخائلها حين نكتب  
مؤرخين أو مترجمين أو متفلسفين أو ناقلين أو غير ذلك . وأحسبني لم اعد  
الحقيقة حين قلت — والشاهد في البيت الخامس :

يمل الفتى طول الحياة ولا يرى  
على الموت إلا سائطاً جد واجد  
يطلب ، امامات ، أن ينصبوا له  
معالم تستجدي دموع الخرائد  
وتبدى جراحات الردى وكلومه  
وتستمح الأحياء ذكر البوائد

وبنسج برد الشعر مسهر جفته  
ليسي حريم الذكر حر القصائد  
بلى ، ذاك دأب الناس ، كل بنفسه  
يعرفنا ، من صادر بعد وارد  
وديدنهم حتى تجف حياتنا  
وتخلع ديباج الربيع المعاود  
ويسكن نبض الارض مثل قطينها  
وتعلق أسباب الردى بالفراقد !

ولا يحسب أحد ان من الخسارة أن يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه .  
كلا ! فهذا مكسب كبير وربح طائل .

## الاساليب والتقليد

بسم الله أبتديء وعليه أنوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقة دكتورنا في الحلية التي اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز على أن أنازله وأقارعه ، فإنني أنطوي له - أو صرت على الأصح أنطوي له - على الحب والاحترام . وليبني ما عرفته ولا خالطته ! إذن لبقيت بدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوي بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أو لاتضيره وتوهى عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالي إلى صاحب الكتاب أو يبرز لي وجهه من كل صفحة فيه ، كأنما ظهر كتابه في الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه إلى الناس وقال لهم في تواضع كله كبر : هذا مارضييت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب « كما أتصور السفر والكتاب » وإنما هي مباحث متفرقة « لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم » ، وبالغ في هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس أنه لم يعن بهذه المباحث « العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً » وإنه يعلم « أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر » كأنما أراد أن يقول : لستم أهلاً للعناية وأن في وسعي أن أولف خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة - وهم فلا تنس ! - جمهور القراء في مصر ؟ كلا ياسيدى : « لم يكن بد من أن يتجنب ( الدكتور ) التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي إذ كانت

الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ! ولكم وددت أنا - أنا المازني - حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور كتابه ، وقيل أن يصل خائلك الأقدار ما بين أسبابي وأسبابه ، أن أعلمه احترام القراء ! ولكني خالطته فأحبيته مع الأسف ! وإني لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التي توثقت عراها بيننا ويتمصني عنريت النقد الذي لا يحابي الأصدقاء ولا يجامل الأوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدي واشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلتي اليافوخ فيطالغني وجهه الساكن وجبينه المشرق ، وهو جالس إلى يحدثنى ويقاسمني ما أعانيه من الميضض ويحمل عني شر شرطيه فتبي قبضتي وتفلت الفأس ، وتهوى ذراعاي إلى جانبي وتملكني عاطفة فنية تجعلني أقول « خسارة ! نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس ! فإن في الجبين لتماماً وفي العظام قوة ، وفي التركيب متانة - وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتني كنت مصوراً ! إذن لأنطق هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ؟ » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني أمسح له جبينه والأطفة وأريته ! وإني لأنقم من نفسي هذا ولكن ما حيلتي ؟ لست أرى لي خياراً : هذه هي الأسلحة ملقاة أمامي . تتخطى يدي من بينها كل درع مسردة تتكسر عليها النصال ولا نلتقي إلا درعاً من الكتان لا تقى ولا تغني ! وتدعُها المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح !

وما أظن بالقارئ إلا أنه يقول وهو يتلو هذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ! ألم تصدر « حصادة هسيمك » بكلمة قال كل من قرأها أنها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابي كلا بالخط الثلث ! وبراعة إلى الله من هذا الوهم الذي ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول إن هذا أقصى ما وسعه جهدي فإن

رضى عنه القراء فيها والله الحمد وإلا فما لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟  
 وفرق ولا شك بين أن أصرح القراء بأن هذا كل ما في الطوق وبين أن  
 أزعني قادراً على خير منه ! فأنا كما ترى أصدق تراضعاً من الدكتور :  
 هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلاً لأن يتكلف من أجلهم « النقص  
 في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي » وينشر لهم كتاباً « شديد النقص  
 محتاجاً إلى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر في هؤلاء  
 القراء الذكاء والفطنة فأسبقهم إلى الحكم على كتابي على حد قول القائل  
 بيدي لا بيد عمرو !



ولم يكذب الدكتور حين قال في هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق  
 على لنفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأني ما كتبت منه  
 ( كذا ) فصلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص » محتاج « إلى استئناف  
 العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق  
 ذلك بأن الأيام كانت تحول دائماً بينه وبين ما كان يريد « من تجديد  
 العناية واستئناف النظر » وقد أحسنت الأيام بما حالت دون مرامه ،  
 ولو أنها أتاحت له أن ينقح ما يكتب ويتعقبه بالإصلاح ، لما تركت لنا  
 معاصر النقد من عمل نبیض به وجوهنا ونسوغ به طول ألسنتنا . فهل  
 يسمح لنا صديقنا أن نثوب نحن عنه في تجديد العناية واستئناف النظر ؟  
 ويسوءنا أننا لا نحب أن نحاكي أسلوبه ونضرب على قلبه في إرسال  
 الكلام . وليس ذلك لأن أسلوبه الكتابي شاق يتعذر تقليده ، بل لأن  
 لنا أسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا أن ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، ما معناه  
 أنه لا يطمع من الشهرة في أكثر مما وفق إليه من كثرة المتلمذين الذين  
 يقتاسون به ويحتنون مثاله في طريقة الأداء وفي تأليف الكلام ، وعندى

أن الأساليب التي يسهل محاكاتها هي أحلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التي يختلف بها كاتب عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هي التي لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم إن المتنبي مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارئ أو السامع — إذا كان قد حصل شيئاً من الأدب — إلى النص على أن هذا البيت أو الأبيات للمتنبي . وما من مطلع على الآداب الغربية يعيبه أن يفتن إلى أسلوب كارليل الانجليزى مثلاً ولو سيق غفلاً من كل نسبة .

والآن فلنسأل : من الذى استطاع أن يقلد المتنبي أو كارليل ؟

أجمع أدباء الدنيا وشعراؤها قاطبة وكلفهم أن ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبي أو يكتبوا فصلاً على مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبيحوا بالفشل ! ذلك لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة وطريقته في تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق ، كانت المحاكاة أشق والاختفاق فيها أقرب . فهى لا تسهل إلا حيث يكون الأسلوب نخالياً من الخصائص التي ترجع في مرد أمرها إلى النفس وماركبت عليه وانفردت به .

وإليك مثلاً من عالم الموسيقى : ونعنى به هذه الأغاني الشائعة على الألسن والتي يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والأطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتوا إلا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه الغناء . ومعلوم أن الذين وضعوا هذه الألحان وصنعوا فيها هذه الأصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون أصواتاً مثلها في كلام غير كلامها ، أى يقلدونها ولا يجدون في ذلك عسراً ، أما الأدوار الكبرى والقطع التي هي أدخل في باب الفن من الطقاطيق ،



والتي يشتهر بها واضعوها ولا تذكر في الأغلب والأعم ، إلا مقرونة — على الأقل في الذهن — بأسماء أصحابها ، نقول أما هذه فما أقل مقلديها بل حفاظها ! وأنت قد تستطيع أن تصنع بركة أو بحيرة تشرع فيها على الزوارق وتأتي إليها بشتى الأسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتثر على سيفها الحصى ، وتفرش الأرض على مستدارها بالرمال ، ولكن أيدخل في مقدورك أن تحفر لنفسك فيما شئت من أرض الله الفضاء بجرأ أعظم طامى الموج ، متدافع الأواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء ! ؟

فليس من دواعى الفخر أن يكتر مقلدوك وأن يكونوا موفقين فى الحكاية . ولعمري ماذا يبقى من المرء إذا كان يكتب على أسلوب إذا رأيت تقليده حسبته ألا يكون الإنسان فى هذه الحالة عبارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك أنه يكون إنساناً عادياً من الأوساط ، أمثاله كثيرون إذ كان لا ينفرد بشيء يرتفع به عن مستواهم .

ومن حسن حظ الدكتور أن له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتدائه ، لأن أسلوبه ليس خالياً من الخصائص وإن تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه . وأعرف أناساً يخلطون بين كلام وكلام سواه غير أن هذا مرجعه إلى ضعف التمييز وعدم التفطن إلى الخائص الدقيقة التي لاتأخذها العين أول ماتأخذ .



لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولكن الدكتور الذي أثار نفعها بلا مسوغ يبدى فيها ويعيد ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التي كان لها نصيب من الأدب وحظ فى إتقان القول وإجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر

من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف .

وهو كما ترى - أو فيما أرى أنا - كلام يحتاج إلى إيضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده ... لأن الحياة الإنسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى نشعر بان حياتنا الآن هي ، إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بان يومنا يغير أمسنا وبان حياتنا الآن ، إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين ، فهي تغايرها من وجوه .

« ولإذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة إليه ، مترددون في ميولنا وأهوائنا وآرائنا فنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون إلا ابن أمس ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا تعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهي سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر

هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر إلا في شيء واحد هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، إلى الأمام ، دون أن يقف في فكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه . ويشدد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الجديد الغلاة في التشيع له يشدد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء وإنما هي محققة لهذين الأصلين تحميتهما طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة والذي هو المحقق الرائد لا اعتدال الطبع وصفاء المزاج والذي هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث» اهـ .

والآن أفهمت ؟ كلا ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا إلى أعماق مجهولة من الهواء الراكدة فيما وراء المادة ولم يزد على أن أذكرنا تلك السرايب الرومانية التي تذهب في كل اتجاه والتي احتفرتها أيدي الناس بحثاً عما لا ندرى ! ونحيراً لنا أن ندع الدكتور وشأنه في هذه السرايب ولترفض أن ننحدر وراءه إلى هذا الظلام الدامس الذي أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة وبين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه « البقاء والاستحالة » نسأل الله له السلامة ! .

والمسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعض المعاصرين المثل الأعلى ، وقد يكون كذلك أو لا يكون ، ويتوهمون أنهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وأنهم إذا استعاروا أجنحة النور حلّقوا مثلها في سماء الحياة ، وأن في وسعهم أن يوفّقوا بين روح العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلي ومثل الدكتور

لا يعنون أنفسهم بهذا التوفيق لا يتحرون إلا شيئاً واحداً هو الابانة عما في نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يعنى بأن يدرس براعات الأدب القديم . وفريق لا يكثر لذلك . فالأمر كما ترى لا يحتاج إلى كل هذه الفلسفة التي حصب الدكتور بها وجوهنا في فاتحة كتابه .

وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول إن مقلدى القدماء لا يقلدوهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وأن امكان النجاح في هذه المحاكاة مستحيل ، وأنهم حين يكتبون لا يحتذون مثالا قديماً ، وأنهم واهمون إذ يظنون أنهم يطبعون على غرار السلف ، وأن السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليب تفكير عني عليها الزمن ، وأن ينظر إلى الحياة من وجهة غيرها كالأيام ، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وببيئة ووراثية انقطع فعلهما في هذه الأيام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر إلى الماضي ويحيى بكلام لا يختلف في شيء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم لكان في نظري أعظم من ذلك العربي ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذي يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها ، ذلك أنني أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الأرضية في هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب . وهذا صادق أفندي الرافعي زعيم من نسيمهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وإنما هو مقام حاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الأحمر » لم أنخيرها ولكن وقعت عيني عليها اتفاقاً ، ويجدر بي قبل أن أنقلها أن أعلن أنني لم أفهمها ؟ وهى قوله « قد يتغير الرجل في نظر امرأته حتي تقول له : يا أنت الأول ويا أنت الثاني ، ولكنى عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟ ! ! » ،

ولست آتى بجديد حين أقول إن من المستحيل أن يرجع أحد بنفسه إلى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها إلى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك أن واحداً يركب عقله ويتعثر به في الطريق الذى تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجله أو مطية أخرى ويسير في طلبعة الركب أو بين سواده .

وان الكتاب ليحسنون جداً إلى الأدب إذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التى أثاروها حول القديم والجديد فان الزمن ماض لا ينقل رجلاً فن سايره فهو معه ، ومن شاء أن يتكلف الخيال فسينقطع عن القافلة وأمره إلى الله .

## قليل من الفلسفة !؟

نستأذن القراء الكرام في قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود إلى ذلك . لا لأن الفلسفة مما يعسر عليهم « هضمها » ولا لأن « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه الذى ملته لكثرة ما ذكرته ، بل لأننى لا أحسن هذا الضرب من الكلام . وما لنا لا نتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ما تيسر له يعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحي القارئ أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة فإن الدنيا بخير ياسيدى ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى إذا لم يفهموها كما هو المنتظر ! ذلك أنها دفاع عنهم فما أطيبنا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوص فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونعرض لأن يطبق علينا أحدها فكه الرهيب ويبتلعنا بكل ما تنطوى عليه من قدرة وحذقة ، أو لأن نغرق ونرسل فى النهاية إلى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ وقانا الله شر خدمتهم !

ويغرينى باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت إليه فى مقالى السابق وأسلفت عليه القول من زراية دكتورنا على القراء واعتباره إياهم غير أهل لأن يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث واللاحاح فى التحقيق العلمى إذا كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » لا يا صديقى الدكتور . عفوك ! لو وسعت هذا الذى تقول إنك تجنبه لما أحججت

عنه ولا صدك الاشفاق على رعوس القراء والترفق بأدمغتهم . ولو كان في جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولاحتلت وتلطفت وألححت في عرضه ولرفعته قبلنا من كل ناحية .

وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فإننا جميعاً مع الأسف هذا الدكتور ، ومامننا إلا من يطيب له أن يدعى أنه قادر على خير مما يصنع وكما أن الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس أنه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصائصه ورقة حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : يزعم كل معدم منا أو من لا يملك إلا فكرة واحدة أنه غنى العقل ، وربما أغرق في الدعوى فقال إنه مليونير ! والناس في العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعينهم أن يقفوا على حقيقة الدعوى فيه ونصيبها من الصحة ، ومن هنا ترى الفلاس لا يزالون يكبحون جماح دعواهم ليجعلوها أقرب إلى العقل وأحرى بالتصديق ، إذ كان لا يقبل ممن يمشى في أسمال بالية ويسكن كوخاً حقيراً أن يقول إن المال عندي قناطر مقلطرة ، ولكنه لا يدفع السامعين إلى الإنكار والجزم بـكذبه إذا ادعى أنه ادخر مائة جنيه . فإن مائة جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهر حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما الخيلة في دعواه ؟ ما طريقة حسابه والحكم عليه ؟ إنه غنى يدعيه لا الكتاب والشعراء والعلماء وحدهم — ولو اقتصر الأمر عليهم لكان الخطب وسهل الوزن والتقدير — بل كل من له رأس بين كتفيه . وهبك عرفت ما في رأسه وأحصيته فقد بقى أن تعرف أهو من ماله الخاص أو ممن اقترضه من سواء أو مما يستريبه ؟ ؟ فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنا غير قائمة ، وكل ذى دعوة يرى من الأوفى له أن يغض عن دعاوى سواء ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة ويتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً  
 لاعجابهم والتماساً لثنائهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى  
 لنا طباعنا المنكرة إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا إلى اكتساب  
 ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فإذا عوتب أو نوقش اعتذر  
 بالسوق وأنها لا تحتل إلا الخسيس الرخيص من الأصناف ، ويصفى  
 ثان ويغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه أن يقول فرغ رأسي ،  
 ويروح يقول إن الأرض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع  
 أرض ظهرها صفوان ، وقد علم أن العيب عيبه لا عيب التربة ، وأن مالا  
 وجود له إلا في رأسه - إن كان فيه شيء - هو في حكم المعلوم ، وإنه  
 وجود لحاطر على الحقيقة إلا إذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجيء  
 ثالث بكلام لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول  
 صديقنا الأستاذ العقاد في وصف واحد من هؤلاء ، فإذا قلت له إنك  
 تكتب ما لا يفهم استشاط وسب الشمس والقمر وقال إن منزلتي أن أكتب  
 ومنزلتكم لا تفهموا ، إذ كنت اختلف عنكم في الحسن وفي التفكير وفي  
 الحكم على الأشياء ، وأصدر فيما أكتب عن الالهام الذي لا ينزل على العامة  
 وأشباهاها ! وهكذا .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة إلا أنها مستمدة من سوانا  
 كالحياة نفسها ، والحياة أبداً جديدة غير أن حاضرها متسلسل من  
 ماضيها ومرتبطة به ويسرني أن اعترف في مستهل ، فلسفتي التي أرجو  
 أن أوفق إلى بسطها وإيضاحها أني مدين على الأكر لصديقي الأستاذ  
 العقاد وإن ما كتبه في « فلسفة الجمال والحب » وذهب إليه في هذا البحث  
 من أن « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبيناً في عالم الفلسفة وإن قوله



في مقدمة كتابه (١) « إن الكون كله والحياة ( وهي أعم من الكون في نظري ) والفن ومناظر الأرض والسماء - كل أولئك مظهر للتآلف أو للتنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة ، أو بين أفراس الفن وأوزانه : قوي مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما اختلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذي يبين بالمادة صفاء الروح ويسر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهذا الائتلاف هو دستور الفن الإلهي المحيط بكل شيء وهو فلسفة الفلاسفة في هذا الوجود » أقول إن قوله هذا على الخصوص هو الذي فتح لي الأبواب المغلقة التي طالما أوهيت رأسي بنطحها .

نعم هذا هو دستور الفن الإلهي : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين وبغير ذلك لاستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من مظاهر التناقض في الحياة ، وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقاد التي أعلن الدكتور طه أنه لم يفهمها ، هي مفتاحي الذي سأديره فيما سأتناوله الآن . وإذا كان لكل شيخ طريقته الخاصة به فسأبدأ بحثي من حيث أريد أنا لا من هذه الرباوة العالية التي أشرف العقاد من قتها على الحياة ، وفي مرجوى أن آخذ بيد القارئ وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعاً هذه القمة .

بأيهما يحس الآدمي أولاً : بنفسه أم بغيره ؟ أظن أنه لا شك في أن أول ما يحس به المرء بعد أن يأتي إلى هذه الدنيا ويشعر بشيء فيها ، هو نفسه . وفي وسع كل امرئ أن يتحقق من ذلك ويقطع الشك فيه باليقين وذلك بأن يلاحظ طفله لأول عهده بالحياة ، فإن كل طفل يظل زمناً غافلاً عن كل ما يحيط به من الأشياء والناس ، بل أبويه بل أمه أو ظُهره ، وظاهر

---

(١) مطالعات في الكتب والحياة .

أن إحساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئاً فشيئاً ولا ينمو ويقوى إلا تبعاً لنمو إدراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من الصلات . ومعنى ذلك أن الأحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير وناشئ قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى إن الغرائز الاجتماعية مكتسبة إلى حد كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية . أضف إلى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع .

فالفردية هي السمة الأولى التي تبتدئها الحياة أو تبدو معها . وثم سمة أخرى لا خفاء بها هي أنه لا سبيل إلى الخلط بين اثنين وأن التطابق التام حتى بين التوأمين لا وجود له ، وبعبارة أخرى ، ليس في الحياة فردان يمكن أن تصفهما بأنهما مترادفان كما تصف بعض الألفاظ تساهلاً في التعبير . نريد أن نقول إنه لا آخر للتنوع في صور الحياة . أى أن الحياة مطلقة الحرية في انتقال الصور التي تبدو فيها وتشكل بها وإن سبيل الحياة أن تخرج أشكالاً متنوعة وأنها لا تنقيد في ذلك بقالب معين ولا تلزم فيه مانلتزم نحن مثلاً في الشعر أحياناً من الوزن أو القافية . ولا يتعجل القارئ فيعترض فما نريد أن نذهب إلى أبعد من أن « الأصل » هو الحرية المطلقة في اختيار الصور والأشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أى لو أن الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الاحياء تكراراً شخيفاً لا معنى له . وتصور أن الناس مثلاً يخلقون على طراز واحد لا يتغير ويصبون في قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل في هذه الحالة صورة معادة لكل جيل سبقه ؟؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على الإطلاق وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفينة مملدة . وما أحقها حينئذ بأن يحجر عليها من يستطيع ! ؟

كلا ! ليس في الحياة إسراف ولا إملال لأنه لا تكرر هناك ولا إعادة . وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما عداه وحريتها في ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد . ولكن - نعم « ولكن » - لابد من القيد الذى تنتظم به الحرية وتضام من التبدد والانحلال المفضيين إلى العدم : وهذا القيد هو أن الناس لا يخلقون في هذه الأيام كما خلق أولهم من الطين مباشرة أو من المواد الأولية . وإنما يأتى الإنسان من إنسان مثله وتخرج صورة الحياة الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة الخلق الحديد يطبعه بطابعه ويترك أثره فيه فيجىء الحديد مشابهاً للقديم وإذا كان هذا هكذا فكل فرد يأتى إلى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل التى ترى إلى الاحتفاظ بالصورة القديمة وإلى إعادةتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة !

وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟؟ وجوابنا أن العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولاً أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف فى كتابه فلم يبق لغيره عذر إذا لم يتفلسف ؟؟ وثانياً إننا أردنا أن نعلل هذه الظاهرة العجيبة : ونعنى بها تزلف المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدره . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة إن من الدلائل القوية على أن الأصل أن الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها أن كل واحد منا يجب أن يرتفع عن المستوى العام بالحق أو بالباطل لأن التميز دليل على وفرة الحيوية واربائها فى المرء على النصيب العادى ، وهذا التميز هو

الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية أى قانون الحياة على الوراثة التى تحاول كما قلنا وكما تعلم أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يحب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ، وإنما لرغبة تنبىء عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فإذا رأيتنى أو رأيت سواى يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى إلى ذلك والباعث عليه واعلم أن « الجمهور » لفظ مرن يسلك فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن يجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا » .

## القديم والجديد

من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد ، ومن الأمور التي يشكوها من يتنكبون الطرق المعبدة أن الناس لا يبادرون إلى متابعتهم حينما يذهبون . فأى القولين أصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد أشرنا من قبل إلى أن سبيل الطبيعة أن تصل إلى غايتها من أهون سبيل ، أى أنها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً ، ولا بأس من أن نعود إلى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ويحل مشكله ولنضرب مثلين أحدهما من الإنسان وثنائهما من غيره ولنبدأ بثنائهما فإنه أخف وأيسر أيضاً تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتضر لنفسه مسيلاً . فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى أثر ، منذ سأل على ويحتضر لنفسه مسيلاً . فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى أثر ، منذ سأل على وجه الأرض إن يخرق الصخور أو يعلوها وزهد في اللين الدمث الذي لا يشق عليه إن ينساب فيه ! كلا ؟ ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو إذا صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راج يترقرق فوقها . وإذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم أن يعلوها ويظم فوقها إذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها . ودع هذا وتأمل الإنسان وسل نفسك ما السر في أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كوّن لنفسه من العادات ؟ أليس لأنها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذي تزاوّل فيه عملك اليومى . فأنت كلما ذرت الشمس تكرر ماعملته في الصباح الماضى وترايل بيتك وتقودك رجلاك وأنت لاتشعر إلى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك عليهما فيه كعادتهما فى كل يوم . ومن المؤكد أن سلوك هذا الطريق لا يكلفك تنبهاً خاصاً أو تفكيراً

ولأنك حين تمشي فيه وتمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شأنك في ذلك من بعض الوجوه كشأنك حين تأكل : تمتد يدك إلى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع إلى فمك ومنه تهوى إلى جوفك . وليس لديك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم أن يد المرء تخطيء وترتفع إلى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك في الطريق المألوف وتذهبان بك في منعطفاته دون أن تفكر أنت في شيء ولكنك حين تسلك طريقاً آخر غير الذي ألفته تلقى نفسك تستعمل عينيك وتجيهاً فيما هو أمامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر في طوله أو قصره بالقياس إلى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقاييس كثيرة ويجرك هذا إلى مواضع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو أكثر ، من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئاً منه حين تأخذ في طريقك المألوف . وكذلك ، الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التي ألفت أن تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس في أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم في الوجود ، أعني من طينة الأرض التي صيغ منها المخلوق الأول — كائناً ما كان هذا المخلوق — ولست أعني بطينة الأرض وحلها ، وإنما أعني المواد الطبيعية الأولية . كما هو ظاهر بالبداية . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن ، وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن إخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق ، وصرنا تخرج إلى الدنيا بطريقة التوالد ، إذ كان خلق الإنسان بالتوالد أسهل من إعادة كل أدوار التطور الماضية ، كلما أريد خلق إنسان . ولأن التوالد يتيح المرور بمخترل هذه الأدوار وبسرعة ، فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للأصل . وإذا كان هذا الكلام يحتاج إلى تفسير فليلم القارئ — إذا كان ممن يجهل ذلك — أن المرء يعيد على صورة مصغرة

مختزلة ما مرت به الإنسانية من أدوار النشوء ، وللقارىء أن يصدق هذا أو لا يصدقه ، فإن كانت الأولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان إلينا ، وإن كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع إنكاره أن الأمر كما نقول، والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن تتمجشم إثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يربحنا بأن يقرأه في أكثر من كتاب واحد .

والآن فلنتنقل إلى شيء آخر ، وليحضر القارئ إلى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التي يسمونها القانون . وهي آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد إصلاح أوتارها كلما أراد أن ينتقل إلى « نغمة » مغايرة للنغمة الأولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج إلى أعداد أوتاره وتثبيتها من جديد إذا كان الانتقال بسيطاً وفي موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذي يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً . وتخصب هذا معروفاً مفهوماً . وما منا إلا من رأى ذلك وشهده بعينه. فصاحب القانون لا يغير شد الأوتار، ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد ، إذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئياً غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئي عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمه ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أو التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو أشبه بقديهم الذي ساروا عليه وألفوه ، لا يحسون أن جديداً طرأ أو أنهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارئ واستقباله . ولا يشعرون بدافع إلى المقاومة اتقاء لما يسكلهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الأمثلة كتابات المتفلوطي رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد ، بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما في الأمر أنه جعل

لكلامه طلاء أو لوناً لا يحيلسه عن أصله، ولا يخرججه عن تيساره .  
وشبيه بذلك أن تستحدث ألواناً جديدة في الملابس دون أن تغير الشهرة  
( المودة ) في تفصيلها - فلا يصدم الناس منها شيء كبير ، ولا يجعلهم  
على التردد في قبولها والإقبال عليها أنها مخالفة لما يجري عليه العرف .  
ولكن لنفرض أن حائكاً سن لنا شهرة جديدة كل الجدة، كأن يرتد بنا  
إلى خمسين أو ستين سنة، ليحي طرازاً كان شائعاً يومئذ، أو كأن يستحدث  
أسلوباً تكون الأزرار من الخلف لا من الأمام أو تكون السترة  
أو ما يسمونه « الجاكيت » أشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف  
هذا الطراز ؟ كلا ! يتخرجون في أول الأمر وينكرونه ، ويظنون  
بتهيبونه زمناً طويلاً أو قصيراً على قدر بعده من مألفهم ، حتى يتهيأوا  
لقبوله شيئاً فشيئاً، ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الأيام، إن كان له نصيب  
من الجمال والصلاح . وهذا هو الذي يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر  
على التقاليد والسنن، وينهج سبيلاً غير التي ألف الناس أن يهجها الكتاب ،  
أو حين يأتي عالم أو فيلسوف برأى يقلب مانشاً الجمهور على اعتقاده .  
ولماذا في ظنك كان أهل أوربا في القرون الوسطى يستنكرون أن  
يذهب أحد إلى أن الأرض دائرة، أو أنها ليست محور الوجود وقطب  
الكون أو أن الشمس لا تدور حولها، بل هي التي تدور حول الشمس .  
أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كر بهم من ذلك في حياتهم أو أفسدها  
عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا من خلافه ؟ لا شيء سوى أن الرأي  
الجديد كان خطوة في عكس الطريق الذي درجوا عليه، كما درج آباؤهم ،  
وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألفهم ، بمثابة القول بأن الألف  
مجمعول لمضغ الطعام، والأذن للشم ، والعين للسمع . والناس إنما يسهل عليهم  
الأخذ بالجديد إذا كان مقارباً لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن  
مغايراً في جوهره لأرائهم أو أذواقهم .



وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض أنه سن لنا شهره جديدة كل الجدة، كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازاً كان شائعاً يومئذ » ، وأعني بذلك أن القديم الذى مضى زمنه وانقضى عهده يكون فى حكم الجديد، وله وقعه وصدمة حين يراد إحياءه ، لأنه يكون جديداً فى نظر من لم يألوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه، وعلى أن هذا فرض قائم على استحالة إذ كان إحياء القديم يتطلب أن تتوفر الأحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التى عفى عليها الزمن وطوي صفحتها .

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد ، وإنما الصحيح أنهم يقاومونه ويتهيثون له على الأيام، وأن جديد اليوم إذا كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك، وأن نشكر الله عليه . إذ حقيق بالدنيا أن تنقلب بمارستاناً ضخماً ، لو أن الناس فيها كانوا يبادرون إلى الأخذ بكل جديد، وإجابة كل مهيب ، فليس كل جديد صالحاً والاتزان فى الحياة ألزم وأجدى وأكفل، باطراد التقدم من طيش التعجل .

## العمى والغريزة النوعية

— ١ —

ليس الأعمى كالبصير . هذه ، فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نغنى أن أحدهما دون الآخر أو أفضل منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكننا نغنى أنهما مختلفان ، وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للمرء في وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجراحة عمل يمتنع إذا تعطلت ؟ ألا يحدث كف البصر تأثيراً في مزاج الإنسان وفي تفكيره وإحساسه بالحياة والناس وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وأن الأمر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وستتناول في هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يجلو ما أشرنا إليه في الفصل السابق لإنجازاً لوعدنا وإتماماً لكلامنا .

الغريزة النوعية من أقوى غرائز الإنسان ، ومظهرها الحب كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة إلى تحسين النوع والحيلولة دون انحطاطه . وليس هنا محل الكلام في الحب ولكن هنا موضع التنبيه إلى أن العين أدواته الأولى ، والنظر حاسة « اجتماعية » ليس أعون منها على الإحساس بالجمال ومضاعفة هذا الإحساس وتقويته .

ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة « معينة » وهو ضرير فسأله في ذلك ، أو أحس هو أن الأمر يحتاج إلى إيضاح وتفسير ، فذكره في شعره فكان مما قال :

ياقوم أذن لبعض الحى عاشقة  
والأذن تعشق قبل العين « أحياناً »  
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم  
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط في قوله « أحياناً » فما تستطيع الأذن أن تقوم  
مقام العين أو تسد اختلالها ، ولقد صدق ابن الرومي حين قال :  
هل العين بعد السمع تكفى مكانه  
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدي ؟ ؟  
ولكل منهما عمل . وتأمل بيتي بشار اللذين سقناها لك ، وانظر كيف  
روى عن الناس أنهم قالوا له أنه « يهدى » بمن لا يرى . وما أرى أصلح  
من هذا اللفظ ولا أحق بهذا الموضع . وهل هو إلا ضرب من الهذيان  
الصريح مهما أولته وكيف خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج  
لنفسه فقال :

وكاعب قالت لأتراها يا قوم ما أعجب هذا الضمير !  
هل يعشق الإنسان من لا يرى فقلت والدمع بعيني غزير  
إن تك عيني لا ترى وجهها فإنها قد صورت في الضمير  
وما نشك في أنها صورة ملثثة . إن صح أن من الممكن أن تتمثل لضمير  
الأعشى صورة ما ، أو يجاوز الأمر معه الإحساس العام . وعلى أي شيء  
تراه يقيس ؟ ومن أي شيء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

إن سليمي ، والله يكلوها كالسكر تزداده على السكر  
بلغت عنها شكلا فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر  
وقوله :

عجبت فطمة من نعتي لها أيجيد النعت مكفوف البصر  
وقوله :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي  
فقلت دعوا قلبي وما اختاروا وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب  
وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الاذان إلا من القلب

ولأمر ما عالج هذا المعنى في قصائد عدة ولم يجتزىء بالإشارة إليه مرة . والعين باب القلب كما يقول البحري .

وما كان حظ العين في ذاك مذهبي  
ولكن رأيت العين باباً إلى القلب

والجمال منظر ومعانٍ وتعبير . والعين أقدر من السمع واللمس على إفادة الاستمتاع به . إذ كانت هي الطريق الأكبر للاتفات إليه والشعور به والإحاطة بمعانيه . ولأنها هي المعين على تأليف الصور الذهنية . وهي صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومي في وحيد المغنية وكان بها مشغولاً :

غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد  
وزهاها من فرعها ومن الخلد ين ذاك السواد والتوريد  
فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد  
ما لما نصطليه من وجنتها غير ترشاف ريقها تبريد  
وغرير بحسنها قال صفها قلت : أمران ، هيئن ، وشديد  
يسهل القول إنها أحسن الأشياء طراً ، ويصعب التحديد  
تنجلي للناظرين إليها فشقى بحسنها وسعيد  
ظبية تسكن القلوب وترعا ها وقريبة لها تغريد  
تغني كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تجيد  
لا تراها هناك تبحظ عين لك منها ، ولا يدر وريد  
من هلو وليس فيه انقطاع وسجو وما به تبليد  
مد في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقها مديد  
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجي فكاد يبديد

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد  
فيه وشى وفيه حلى من النغم مصوغ يخال فيه القصيد  
طاب فوها وما ترجع فيه كل شىء لها بذاك شهيد  
وحسان عرضن لى ، قلت مهلا عن وحيد ، فحقها التوحيد  
حسنها فى العيون حسن جديد فلها فى القلوب حب جديد  
ونصبح يلومنى فى هواها ضل عنه التوفيق والتسديد  
لو رأى من يلوم فيه لأضحى وهو لى المستريث والمستريد  
ضلة للفؤاد يحنو عليها وهى تزهر حياته وتكيد  
سحرته بمقلتها فأضحت عنده والذم منها حميد  
خلقت فتنة غناء وحسناً ما لها فيهما جميعاً نديد  
فهى نعمى يمد منها كبير وهى بلوى يشيب منها وليد  
لى حيث انصرفت منها رفيق من هواها ، وحيث حلت قعيد  
عن يمينى وعن شاملى وقدا مى وخلفى فأين عنه أحميد  
سد شيطان حبها كل فج إن شيطان حبها لمريد  
ليت شعرى إذا أدام إليها كرة الطرف مبدى ومعيد  
أهى شىء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد ؟  
بل هى العيش لا يزال متى استعر ض يلى غرائباً ويفيد  
منظر ، مسمع ، معان من اللهو ، عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لأننا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب  
وقد كدنا نقول أو فى سواها من آداب الأمم الأخرى - هى أجمع من  
هذه لمعانى الحب والجمال ، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرثى والمسموع  
ولقد يذكر الكفيف الغصن والظبي وما إليهما مما يشبه به شعراء العرب ،

ولكن هذا منه لا يكون إلا تقليداً وعلى السماع وبمقدار ما أشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها، ومن غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة في الضمير وأى صورة في ظنك يمكن أن تكون قد حصلت في نفس بشار وهو يقول :

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا ؟

لا صورة على الإطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه إلى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش الجسم المحيى للنفس . وقد يتناول المكفوف الصوت ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسعه أن يحضر بما يسع ما يحضره البصير، ويتمثله من الصور، كما فعل ابن الرومي في وصفه لغناء وحيد. فقد تراه يتعلق بهيئتها ، وسكون أوصالها إذا تغنى ، واحتفاظها بجبال شكلها ، فلا عين تحفظ كالوارمة ، ولا ورید يدر ويمتلئ بالدم وينتفخ ويشوه شكل الجريد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وشيئاً وحلياً « مصوغاً » لا ساذجاً لم يعمل فيه الفن. وجعل الشعر « يختال » في هذا الحلى وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال ، بالقياس إلى ما صار إليه من أخذ الحب عليه بالإسداد ، وذلك بقوله « سد شيطان حبها كل فج » ، وكيف نبه إلى ما يمليه النظر وبفيده من معاني الجلال بقوله « أها كل ساعة تجديده؟ » وتشبيهه أياها بالعيش الذي لا يزال يعرض الغرائب .

وما لنا نقول أن بشاراً اضطر أن يعلن عشقه للنساء بأعيانهن وتشبيهه بهن ؟ ما بشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لا يصح اتخاذه قاعدة. ولكن تأمل أمثال الأمم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاربها وغرائزها . ومن الأمثال التي نجدتها في كل لغة أن الحب أعشى : نعم . ولقد صور القدماء

« كوبيد » معصب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أشد ساعداً ولا أحكم ، وكأنما أرادوا أن يقولوا إنه لا يرى مالا يحب ، بل أرادوا أن ينبهوا إلى أن كوبيد هذا كله عبون ، ولولا ذلك ما عصبوها فلفتونا إليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء ، ولكن بنا حاجة إلى أسطورة أخرى . تلك أن فينوس أو الزهرة كانت في بادئ الأمر ربة الربيع وبساتين الزهر ، ثم جعلوها ربة الجمال . وفي ذلك مالا يخفى من الشعور الباطني بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة في عيدها . وفي خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه . فيأما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ! ذلك أن المحدود الذي يقاس طولاً وعرضاً لا يروقنا ، ولا يقع من نفوسنا ، كما يستولى على هوانا ، ويسحرنا ما تتدفق فيه الحياة . والجمال ليس شكلاً فحسب ، بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال ، كأنما يريد الشكل المحتل أن يتدفق في أشكال أخرى . وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة ، كما تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدوب . ومن هنا كان الإنسان أجمل ما في الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس ، أو حركة الفكر ، حتى لتكاد تتخطى العين معارفه ، وتخطئها ولا تراها .

والعيون نصف الجمال ، وهي مدار السحر ومبعت الفتنة ، لأنها أنطق الجوارح وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا بها في كثير من الأحيان إلى الجمال وأطلقوا هذا الجزء على الكل ، كما تري مثلاً من قول المتنبي .

عزيز أسى من داؤه الحديق النجل

عياء به مات المحبون من قبل

فما يعني الأحداق على وجه التخصيص ، وإنما هو من قبيل ما ذكرنا

وليس في وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله، لأنه ليس محروماً من منظره وحده، بل من أكثر معانيه كذلك، ومما يتصل به عن قرب أو بعد، ومن الطبيعة أيضاً. وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقيس به. وأحر بأن لا يكون عنده فرق يذكر بين النساء، وأن تكون كل امرأة متسربة في الجنس، والإحساس بها إحساساً جنسياً عاماً، وأن تكون النساء كلهن كأنما أفرغن في قالب عام، وقيمن واحدة من حيث التناسل، وأن لا تثير الغريزة النوعية إلا رغبة عامة في الأنثى. لا ترتقي (أى الرغبة) إلى درجة التمييز ولا تبلغ أسمي منازلها لانعدام ما يعين عليه. وفي وسعنا أن نقول مع قليل من التجوز، إن الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية كالفرق بين الشعوب الساذجة التي لا تزال على الفطرة والشعوب التي ارتفعت عن هذا المستوى، وصار التميز الفردي فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً. تلك تكون الغريزة النوعية عندها عبارة عن رغبة عامة من الذكر في الأنثى ومن الأنثى في الذكر وهذه تتوخي التعيين والاختيار، وكذلك الكفيف تستوي عنده امرأة وامرأة، وهو إذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا نخطيء جداً، إذا قلنا إنها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس، وما أقل غناءهما وأشد ضلالتها.

— ١ —

### المرأة بين بشار وأبى العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائل الإحساس بالجمال، وهى، كما بينا، أقل من النظر غناء، لأن العين هي الاداة الكبرى. وهى أنفُس الجوارح وأوثق الحواس اتصالاً بالعقل، حتى لترى أكثر المجازات في هذا الباب مستمدة من حركاتها وإحساساتها، والعقل عنها أفهم، وبها أقوى وأقدر، وما يسع الكفيف أن يفهم الجمال



أو يتأثر نه كالبصير . والمرأة عنده في الأعم أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدنى إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى المعاني النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعري . وكان أولهما حيواناً والثاني إنساناً ، وكان بشار إن فرغ من التشبب بالنساء ، أو على الأصح من وصف ما يشاق إليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولته ، وَتَنَزَّيْهِ، فهو أبعلاً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من أنه علق امرأة وراسلها ، يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله ، « أولك في وأنت أعمي لا تراني ؟ فتعرف حسنى ومقداره ؟ وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك ؟ فليت شعري لأى شىء تطلب وصال مثلى ؟ » فأدى الرسول الرسالة . فقال بشار عد إليها فقل لها — ونحن نمسك عن لإيراد الأبيات لفرط ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعلم أنه أهمل كل ما يمكن أن يتفضل به الرجال ، ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده لئناس والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجع على الإنسان من هذه الناحية ، وحتى حين يتخيل حبيبته لا يخرج بها عن دائرة الحواس ومن ذلك قوله في عبدة :

أعددت لى عتباً بحبكمو      يا عبد طال بحبكم عتبي  
ولقد تعرض لى خيالكمو      في القرط والخلخال والقلب  
فشربت غير مباشر حرجا      برضاب أشنب بارد عذب  
والمرأة عنده أنثى تشمى وتنال ولا تستعصى على الطالب  
قاس الهموم تمل بها نجحاً      والليل ، إن وراءه صباحاً  
لا يؤنسك من مخبأة      قول تغلظه وإن جرحا  
عسر النساء إلى مياسرة      والصعب يمكن بعدما جمحا

وهو القائل أيضاً :

لا أياى من ضمنَّ عنى بوصل      إن قضى الله منه لى يوم جود  
وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمانة مشهورة ، قالوا كان يبعث  
بغلامه إليها فتتبع . فلما أضجرها بلحاحه عرفت زوجها ، فقال لها أجيبيه  
وعديه أن يجيء إلى هنا ، ففعلت ، وجاء بشار مع امرأة أنفذتها إليه ، فدخل  
وزوجها جالس وهو ( بشار ) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال :

أمانة قد وُصفت لنا بحسن      وأنا لا نراك فألمسينا  
فاخذت يده ودفعته إلى زوجها ففزع بشار ووثب؟؟ ومن قوله :  
قال ريم مرعث      فاتن الطرف والنظر  
لست والله مدركي      قلت : أو يغلب القدر

وله رأى في شعر النساء يوافق تصويره لمن قال : ما من شعر تقوله  
امرأة إلا وفيه سمة الخنثة : ولبشار حكاية ليس أنم منها على انحصار  
الإحساس بالمرأة في الرغبة الحيوانية ، وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك ، والعجز  
عن إدراكه ، ولكننا مع الأسف لا نستطيع أن نسوقها لشئنا عنها . فليبحث  
عنها من شاء في أخباره المبعثرة ، أو فيما جمع له الأديب أحمد افندى القرنى .  
ونوجز فنقول ، إن بشاراً لم يكن ينظر إلا إلى الأنوثة في المرأة والفحولة  
في الرجل ، وأنه لم يعرفها سوى متاع يحس ويشم ويستمتع إليه .

أما أبو العلاء فقد كان وقوراً محتشماً متشامماً ، رافضاً للحياة مزدرياً  
للمرأة ، وهي (أى المرأة) عنده لا تضمن عفتها ، وأقل ما تجنيه ، التبرج ،  
ومن الواجب أن يداريها الرجل الذي يعايشها ، ويسترضيها ويتقى غضبها  
ويراقبها ، فكثيراً ما تظهر الغيرة على بعلها ، وتسود عيشه من أجل ذلك  
بينما هي تسقى الخليل ريقها !

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة  
 من الفكر إلا وارتقيت هضابها  
 أقل الذي تجنى التـواءى تبرج  
 يرى العين منها حليها وخضابها  
 فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها  
 وحاول رضاها واحذرن غضابها  
 فككم بكرت تسقى الأمر حليها  
 من الغار ، إذ تسقى الخليل رضاها  
 وإن جبال العيش ماعلقت بهـا  
 يد الحى إلا وهي تخشى انقضابها

ويحول سخطه على الحياة ، إليها ، ويصب نغمته على رأسها ، ويقلب  
 ما يكبحه من اشتهاؤ نفسه لها ورغبة جسمه فيها ، فيجعله تهاكاً منها على  
 اللذات ، واستهتاراً في ارضاء الشهوات ، ويسلبها كل ماعدا ذلك ،  
 ولا يراها إلا أداة نسل ، ومطية شهوة ذلول ، فهي عنده حية سامة .

وإنما الخلود في مسارها كربة السم في تسربها  
 وما فضل النساء ؟ ولأية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟  
 صحبتك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات  
 ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقمات  
 فن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصمات

وان تعط الإناث فأى يؤس      تبين فى وجوه مقسمات  
يردن بعولة ويردن حلياً      ويلقن الخطوب ملومات  
ولسن بدافعات يوم حرب      ولا فى غارة متغشبات  
وقد يفقدن أزواجاً كراماً      فى النساء المتأيمات  
وما النساء عنده إلا :

فوارس فتنة أعلام غى      لقينك بالأساور معلقات  
ولا يغرنك عكوفهن على المصلى  
وليس عكوفهن على المصلى      أماناً من غوارر مجرمات  
والمغزل أولى بهن من القلم  
ولا تحمد حسانتك إن توافت      بأيد للسطو مقومات  
فحمل مغازل النسوان أولى      بهن من البراع مقلقات  
وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز      من اللاتى فغرن مهتات  
يسبحن المليك بكل جنح      ويركعن الضمى متألمات  
فما عيب على الفتيات لحن      إذا قلن المراد مترجمات

وإذا احتاج الأمر لمعلم فينبغى أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل  
ضرير إلا أن يكون هرمًا هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة .

ولا يدنين من رجل ضرير      يلقنهن آيا محكمات  
سوى من كان مرتعشاً يده      ولتـه من المتشغيات

وخير للشيخ الفقير أن يتزوج متنعة فإن الفقر والشيخوخة بابان إلى العظام ، والشيب مغتفر مع الغنى إذا كانت « قوى الرجل موفورة » وفي زوجة واحدة كفاية .

ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعات  
فإن الفقر عيب إن أضيفت إليه السن جاء بمعظمت  
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محمات  
ويغتفر الغنى وخطا برأس إذا كانت قواك مسلمات  
وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تبيء بمثلات

ويحتم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللهمات  
والرجال لا يؤتمنون على النساء  
وأمن على المال الرجال ولا تأمنهم أبداً على الخرد

وإذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فإنهن  
حبال غي بهن يضيع الشرف

إذا بلغ الوليد لديدك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد  
فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت وإن رزقت حجي، بليد  
ألا إن النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فإن إرخاء العنان لها يغيرها بركوب مالا يحمد

شر على المرأة من حمامها إرسالك الفاضل من زمامها  
ومشيها تضرب في أكمامها تفرح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد فى إمامها      تأتم ، والخيبة فى إتمامها  
 بأجلد ماعف عن كمامها      أعاذها الخائق من أمامها  
 وريقها الشروب فى صمامها      سام أفعى بان من سممامها  
 إن نزلت عصماء من سممامها      فلا سقاها الطل من غمامها  
 إذا احتوى الريم على رمامها      لزومها البيت مع اهتمامها  
 حتى يجيها الوفد من حمامها      وحملها المغزل فى إتمامها  
 أو فى بما تعقد من زمامها

وأخف ما وصفها به أنها خيالات ولعبة .

وما الغوانى الغواذى فى ملاعبها      إلا خيالات وقت أشبهت لعباً  
 وانتقل الآن من شعره إلى نثره ، ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها  
 ومتاعها إلى تخيله للآخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفه للحوار  
 العين ، وهى على ضربين : ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ،  
 وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . وهو  
 يجعل ابن القارح يلتقى باثنين من الضرب الثانى ، ويقبل على كل واحدة  
 منهما يترشف رضابها فيهبجه ذلك إلى مابه ويقول « إن امرء القيس لمسكين  
 مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقواه :

كأن المدام وصوب الغمام      وريح الخزامى ونشر القطر  
 يعمل به برد أنيابها      إذا غرد الطائر المستحضر

فتستغرق إحداهما ضحكا ، فيقول مم تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضل  
 الله ! أتدرى من أنا ؟ .. إني كنت فى الدار العاجلة ، أعرف بحمدونة  
 وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رضى ، وتزوجنى رجل يبيع  
 السقط ، فطلقنى لرأحة كرهها من فى ، وكنت من أقبح نساء حلب . فلما

عرفت ذلك زهدت في الدنيا ، وتوافرت على العبادة ، وأكملت من مغزلي ومردني ، فصيرني ذلك إلى ما ترى » وتقول الأخرى « لأنني كنت توفيق السوداء ، التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان أبي منصور محمد أبي علي الخازن ، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ . ودع مافي هذا الموقف من التهمك واجعل بالك إلى إقباله الشديد على ترشف الرضاب ، وشرهه في ذلك ، وإلى صرخته « إن امرء القيس لمسكين مسكين » وتكريره هذا اللفظ وما يشعرك به ذلك من تحرق الرجل ، الذي يكبح نفسه ، حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر ، ولا تنس تعاقبه بالرضاب ورائحة الفم واختصاصه ذلك بالذكر .

أما الحور التي خلقها الله في الجنة ، ولا تعرف الدنيا ، فتخرج لابن القارح من سفرجلة أو رمانة ، جارية « حوراء عيناء » فيسجد لله اعظاماً ، ويخطر في نفسه وهو ساجد إن تلك الجارية ، على حسنها ، ضاوية ( نحيفة ) فيرفع رأسه من السجود ، وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثران ( تل ) ! ! عال فيقال من قدرة الله ، ويقول « يارازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائلة منها ، والذي فعل ما أعجز وهال ، ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت خير في تكوين هذه الحورية كما تشاء ، فيقتصر من ذلك على الإرادة « وهنا أيضاً تهكم ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد ، وإلى مواضع معينة منه ، التفاتاً كان المعري يزجر نفسه عنه في حياته احتشاماً ونقمة .

فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية ، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها ونخورها وضعفها ، وإن كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب

بشار ، والنظرتان متفتحتان فى النهاية ، وصادرتان عن أصل واحد ، وإن كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين . وإنك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطراب ، إلى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبى العلاء ، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور إلى اللذائذ الحسية . وهو فرق أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى فى كلا الرجلين علة أولى . وقد كان أبو العلاء شديد الإحساس بعماه وإن له لهذا البيت :

إذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا — وإن لم تكفوا — إن كلكم أعمى

وهو حسب التأمل ولو لم يكن له غيره لكفى



## ليلة

بين الصحراء والمقابر

هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحونى  
أعدى ؟ - صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حبا ، ولا يجابو فى صحرائى  
قلب قلباً ، ولا يغيرها صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها إلا العفاء ؟ -  
كذلك كانت قديماً ، وكذلك أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب  
فيها ، وأطوف فى فيافيها - وجهاً مستعاراً يبدو فيه « الوجه الأعظم »  
متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى  
يريد أن يرقىها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها  
هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها  
هذه الرمال وتبرز للقمر الذى ينجحها ضوءه وينام على صدرها المتموج ، فى  
مثل وشى الرياض تنفج روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على أيكها إعلناً ،  
وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحياناً » ؟ ! ولكنى أنكلم كأنما  
هى قد رزقت الحس والإرادة !



وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعاً إذا أخبط فى الصحراء  
والريح تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حباتى ، وثبتت ذراتى  
ولانت مواطئى لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! » .  
وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عففت الظلمة آى الهدى منها :  
« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص  
فيه قدماك ، وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا (١) لانملك

---

(١) الايين القانون .

خلافه ، وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ،  
وهل نراك تملك من امرك كثيراً أو قليلاً ؟ »

قلت : « كلا ! »

وانجابت طبقة من الظلمات الخفيفة على الصدر وخلصت أنفاسي قليلاً .



وهبت الريح بي كالمجنونة فعدت ، وكأني أمشي على ماء بلجي يعلو  
ويهبط ، وسفت الرمال في وجهي حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن  
ترجيني ، وتسابت زمزمها إلى أذني فوقفت مكاني لا أريه وأغمضت  
عيني وقلت لنفسى : ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه  
الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف ! فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة  
وهدأت الفورة وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ  
بالغناء ، ويختلط بها الألم والطرب ، وأقول لا شك أن الحياة عياء  
صماء فليتها توهب البصر هنية لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير  
والشر . وباليك من يدري ماذا تصنع أذن ! أترى يثور بها الخجل  
فتعصف بكل شيء وتمحوه أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟  
أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض  
المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست في أذني الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟  
وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجذب ؟ والصحة  
والسقم ، واليأس والأمل ، والبكاء والضحك ؟

فرفعت رأسي حائراً وأدركت عيني واجبا ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت  
أمشي ! ودلفت بي رجلاي إلى المقابر فتخللتها إلى جدد فيه شطر من  
ماضي ، وقعدت وأسندت ظهري إلى حجارته وأنا أقول لنفسى ( الموت

على الأقل راحة ، فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت  
النظر إلى وجهها المملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب) ..

فخلص إلى صوت من بجانب القبر أن ( لا ! )

قلت كيف لا ؟ واستدرت حتى واجهت أصواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها ،  
ولعلها أقل مما توهضنى وحشة الوحدة التى تطيل أياى التى صارت كلها  
ليالى ، أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حجبت غنى الدنيا . ولو كان المرء  
يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من  
الأحياء ، ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً . وأنت — على الأقل ، تذكرنى  
فأبقى بذكراك ، فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن  
كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ، ولكننا نألم فتور الذكرى عنا  
واشفاءنا على التلف الأخير ، وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جد  
أعلى لى ، مسكين مسكين قد استوفى ميته جميعاً ولم يبق منه شيء .  
وليت أذكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود ولكن هيات ! إنما  
يجدى الذكر من فوقها دون من هم فى جوفها مثلنا

قالت ( ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا

يسؤك ذلك ؟ )

قال الصوت : ( كلا ! سيات عندى أن نفى لى ولا نفى ، ومن العبث  
أن تتكلف لى الحفاظ فإننى بعد أن مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى  
تستحقه أو تنتظره ، ولا ألتفت إلى وفائك أو غدرك ، وإني لأدرى فوق  
هذا ، إنك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به نفسك على عهدى ؛ فافعل  
ما بدا لك ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبق لى رقعة صغيرة  
فى زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء )

قلت : فإذا نسيتك كغبرى ؟

قال الصوت : إذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه ، وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك . وأتقى المهلاك أكراما لك وضناً بك أن تلحقى الأموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فإلى الملتقى !

فسرت في جسدى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول ( إلى الملتقى ) ! ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبة في الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى إلى دارى خفيفاً كما نما حططت عن كاهلى وقرأ . وجعلت أقول في الطريق : ( نعم سأحيا من أجلها ! )

ولما أدت المفتاح في الباب همس في إذنى الشيطان اللعين « تقول من أجل من ؟ » وقهقه !! ففاظنى ذلك فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب في وجهه !! ثم صنعت هذه الأبيات وألقيتها إليه من النافذة

\*\*\*

( هاتف من جانب القبر )

جمالك ! لا تأسف على ولا تأسى  
فإني تحت الأرض لا أحفل بالحبسا

طواني الردى عن ناظريك فجاءة  
وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا

أراني الصبي ، شمسي ، بعيدا مغيها  
فسرعان ماوى النهار وما أمسى !

وكنـت سرور العين والأنف والحشى  
فقد صرت أو ذى العين والأنف والنفسا  
فدع عنك ذكرى إنه ليس نافعى  
وسيان عندى أن تفى لى أو تنسى  
ولا تتجشم لى الحفظا فإنى  
وقدمت ، لا أوليك شكراً ولا حسا  
وأدخل إلیك الشمس من كل كوة  
فما يتملى العیش من یحجب الشمسا  
ستسلیك عنى كل زهراء ناهـد  
وإن بقيت ذکرای تهمس بی همسا  
فما أنت بالباکی علی وإنما  
علی فقد ما قد كنت طبت به نفسا !

---

## ايحاء التمثيل

من رأى أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، أن الحكاية تذكىء العادة . قال « أو لم تشاهد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الأصوات أو أساليب التفكير ، إذا واطب عليها المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟ » .

وكانت أدوار النساء فى ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فتاة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تنقص رجالاً أم تتمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والأوجاع . وهم ( أى الشبان ) أحق بأن يردعوا عن تقاييد امرأة تعاني مرضاً أو حباً أو وضعاً » .

وأما أدوار الرجال فليس يجوز فى رأى سقراط لمثلها تقليد الأرقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس « حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالحبون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقترفون من المعاييب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل . ومن رأى أيضاً أنه لا ينبغى لنا أن نعودهم أن يحاكيوا المجانين فى كلامهم أو أفعالهم لأنه إذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية بالمجانين والأشرار من الرجال والنساء فليس من الرأى أن يقتلدوا بهم أو يقلدوهم » .



هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميذه على الأصح ، فيما تجوز وما لا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنده أن تكون الرواية مزيجاً من التمثيل

والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الأدوار التي تنطوي على النبل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب القصص بالأدوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيل الدور مرة بعد أخرى أثراً في نفس من يؤديه . وليس يعنينا هنا علاجه الذي وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقها أسواء التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه الاستفادة من الحكاية ومن الشعر فيه ، فإنها طريقة للتوفيق لاسبيل إليها في هذا العصر الذي لا شك أن نطاق التعاطف الإنساني فيه أوسع وأرحب منه في عصر أفلاطون ولقد كانت عناية أفلاطون بتربية ما نسميه الآن ( السوبرمان ) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد عليه صورته التي رسمها له في خاطره وما عن قلة لإجلال لأفلاطون أن نعجب ( لسوبرمان ) لا يخرج إلى الدنيا إلا في مثل صوب النبات أو في بيوت من الزجاج ترد عنه عادية الرياح والقر والأمطار ١١ وماذا عسى أن يبلغ مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنا وبوائقها ؟

وما لهذا نكتب . وإنما الذي نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجنا شك في أن للتمثيل أثره القوي في نفوس أهله رجالا كانوا أو نساء ، ومعلوم أنه ليس كل ممثل بصالح لكل دور ، وأن بعض الأدوار هي في أيدي بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو في حكم البديهي أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضالة أو جسامه ، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجري هذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه أداء الأدوار المختلفة ، بل أن القدرة على استعارة الشخصية الروائية وإفراغها على النفس والجسم ، تستدعي استعداداً وتحتاج إلى وجود مقدار من التناسب ودرجة من التطابق . وليس معنى ذلك أن دور الحسيس لا يجيد أدائه إلا الحسيس من الناس بطبعه وفطرته ولكن

معناه أن أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الإحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه . ومن هنا يسعدك أن نقول إنه ما من ضرب من التمثيل يوفق المرء في أدائه إلا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب وبين لابسه .

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هذا الفصل إلا أن بعضهم سيحس من ذلك أنفه ويتزو في رأسه الغضب على والمقت لى ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام ل في هزل أو جد ، ولكن من العسير على أن أصدق أن امرءاً يحسن ما لم يركب في طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم أن أقول لهم إن الناس في الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة ما يتفاوتون وإننا جميعاً من طينة الأرض « وأين عن طينتنا نعدى ؟ » كما يتساءل ابن الرومي ، إن كان مثل هذا الهراء البديهي يعزى نفساً أو يطفى غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً في أثر عام أن يخرج بعد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرحوم أحمد فهم أفندى وكان ذلك في أخريات أيامه فلفتني فيه من صوته وهيئته إذ يمشى أو يقف أو يلتفت أو يحرق ببصره مشابه مما يؤدي . على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الأمناء المخلصين ومن إلى هؤلاء وكثيراً ما تمنيت لو أني كنت عرفتة — رحمة الله عليه — قبل أن يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى أن من التعسف إن يلجئنا ما نقدر أن يلقانا به بعض القراء من إنكار الدهشة — لا التفكير — إلى سوق الأمثلة الفردية وهي مما لا يدخل في الطوق أن يسوق الكاتب منها الكفاية .

وبحسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً إلى الأصل ، وهو « الإيجاز »



ولا يتسع المقام هنا للإسهاب في بيان وقع النفس في النفس ولكننا ،  
إيضاحاً لغرضنا نقول ، أن كل حركة باعثة الإرادة وأن الإرادة تنفضى  
ببواعثها على الحركة إلى الجهود المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب  
الإحساسى . فإذا كان مصدر هذه الجهود التى تغزي الإرادة بالنشاط ليس  
ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنبى عنه وبعبارة أخرى إذا صارت إرادة  
المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فإن ما يصدر عن أولهما يكون موحى به  
إليه . وقد فسر نوردا وهذا الأعداء في فصل طويل ممتع سبق به كل علماء  
النفس ويلدخص رأيه أو نظريته في أن « الإيحاء هو نقل الحركات الذرية  
من ذهن إلى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك إلى سلك  
غيره بجواره ، أو كما ينفضى الحديد الحسى إلى آتزر بارد بحركات ذراته .  
ولما كانت كل الآراء والحوالج تنطوى على حركات لذرات الذهن فإن مما  
يستتبعه نقل حركات الذرات أن تنتقل الآراء والحوالج معها »

وأظهر ما يكون ذلك في التنويم المغناطيسى . فإن المنوم يستطيع  
مثلاً أن يقول للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى إلى منزل  
فلان بشارع كذا وتضربه بسكين مطبخ تحملها معك » وهو مثل متطرف  
ضربه نوردواو لمثل ما صحت التجربة فيه . قال : « ثم يفيق المنوم  
ويمضى إلى سبيله وهو لا يعى شيئاً مما جرى حوله في نومه ، وقد لا تكون  
له معرفة ما بفلان هذا ، ولعله أيضاً لم يمش قط بشارع كذا ، وعسى  
أن لا يكون قد آذى في حياته ذبابة . ولكنه في صباح اليوم التالى يتناول  
سكين المطبخ – وقد يسرقها إذا كان لابد من ذلك للمصول عليها ويذهب  
إلى شارع كذا ويقرع باب فلان هذا في الساعة الثامنة تماماً ويوشك أن  
يضربه لولا أن فلاناً يكون قد أُنذر من قبل بالتجربة وأُحيط بها خبراً  
فاتخذ لها ما يذنبى من الحيلة »

وقد قلنا إن هذا مثل فيه شىء من التطرف لأن الثابت أن الإيحاء

لا يبلغ هذا المبلغ من القوة إلا في المرضى دون الاصحاء ، وفي الضعفاء دون الأقوياء . وواضح من هذا المثل أنه لكي يتخذ الذهن لنفسه حركات ذهن آخر ويعلى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته يجب ألا يكون هو مجالاً لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من تلك التي يراد نقلها والأعداء بها وبعبارة أخرى ينبغي ألا يكون مجداً في التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذي أشار إليه نوردאו ، لا يثير في سلك آخر مثل اهتزازاته إلا إذا كان هذا الآخر ساكناً أو ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثيره بحركات ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته . على أن حركات أذهان عدة — ولو كانت ضعيفة — إذا اجتمعت وتجاوبت باجساس واحد قد تكون أقوى من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تأثير الجماعة المحتشدة في الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبتها لفعالها في نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية في المجالس النيابية واشباهها إذا زخرت نفوس الأكثرية بعباب إحساس واحد أو متقارب .

والتمثيل حين ترجمه إلى الأصل ، استيحاء لما يدل عليه الكلام ، وقوامه إخلاء الذهن مما يشغله في العادة وإحلال الحالة النفسية التي يراد استعارتها محلها أو بعبارة أخرى إنامة العواطف والحوالج والآراء الشخصية على قدر ما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وحوالج أخرى ، وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس بإخلاء المجال لها ، وهذه أصلح الحالات النفسية للإيحاء ، وهي قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهاز العصبي بحيث لا تؤدي ذرات الذهن من الحركات إلا أضعفها وحين تكون من أجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بإيثار باعث دفعها إلى حركة يعينها نوع الباعث وقوته . فالمثل الذي يؤدي الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تأثير الشخصية التي يستعيرها بضع ساعات كل ليلة ويكون استعداده لتقبل الإيحاء منها أقوى على التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية في يد منومه على الإعادة .

وليس من الضروري أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلهم  
خديعة في أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الأثر  
الذي تخلقه أدوارهم التي يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع  
في العادة إلى إنكار الإيحاء لتوهمه في أول الخاطر أن الاقرار به يغض  
منه وإن كان متبـالـا شائعا وكان فعله ظاهراً في التوافه والصغائر ظهوره  
في الأمور الجسيمة . وكيف تفسر عدوي الزُّبـاء وكون كثرة المؤاكلين  
أشجـلـه لشهوة الطعام ، وما إلى ذلك إذا لم تفسره بالإيحاء .

## ليلة

من أمتع ما مر بي في هذه الحياة ، التي لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع - فأما الشراب فلعل القارئ أدري به وأخبر ! وأما السماع فقل من شجى به كما شجيت في ليلتي تلك ! أى والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت بنفسى ، أغض عيني وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بي كما لم يهجنى صوت سواه ! وقد أعجب لما يصب في الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره في ضمير الفؤاد ، وقد أعالى في إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل ما لي - لو أن لي شيئاً ! - ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفى إلى إنشائها الطرب العارض ثم أسخر من سخري وأقول لنفسي في حدة « أولاً يسر الإسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم مما أضفى الله على من الحياة ما فيها ، ليلة واحدة كهذه التى نعمت فيها ؟ ؟ » نعم ! ولكنهم قد شملهم ظلام أو ركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم نعموا بمثل هذا الصوت ؟ ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حلیم -

« راجح حلمه ، ويغوى رشيد » ؟ ؟



وكانت السماء قد جاد الأرض منها هاضب ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلاحمة ودرنا عليها نأكل

ونشرب مالا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيئها وورد من صاحبه « غير المكدر المطروق » وانبسط إليه غير بانخس واجباً تم أخذنا مجالسنا للسمع وآذاننا العود « بالاحسان وإيمان صادق الخبر » وأطفنا ببيكر من الألحان لم يفيض لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام .

وهاً لذلك الغناء من طبق على جميع القلوب مقتدر (١)  
يملاً روحاً فؤاد سامعه ويصطلى حره من الفرر  
كأنه قالب لكل هوى فكله والمنى على قدر  
لا خير في غيره ، وهل أمم من شارب الراح شارب السكر؟

وكأنى لم أكن أسمع بل أسمى من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يجيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضري برهة كررت فيها - ولا أدري كيف ؟ - إلى لحظة من الماضي المغيب الذى استقر فى زوايا مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس إلى وأعزهم على وقد امتدت الكفان وتصاغتا عن أحنى عاطفة وأوجع إحساس ، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت باللاقى فى قبلة حارة طويلة ، ثم تباعدت فى فزع كأنما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت إنسان العين بعد أن حرمنها قبلة فيها برد العاطفة المضطربة وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضاف إلى ألم الحرمان سحر القدر !

(١) الأبيات لابن الرومى .

وتشبّثت هذه الصورة بالارتسام أمام عيني وأنا أصغى إلى ذلك  
الغناء الساحر الذى يسمو إلى السامعيه مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد  
فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه  
إلى الظلام !

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليلة كانت كلها سحراً . وردنى  
بعدها بغير ذى أذن إلى كل نغمة من سواه ، وغير ذى صور إلا إلى فنة  
من هوى فنه وشجاءه ، ولولا أن يعد ذلك جحودا ولوماً لتجاوزت  
عن ذكر اسمه فإنه أحلى عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناؤه من صورته  
الآدمية على حسنها الرجسى ، وأن أتصوره أبداً هوى ساجحاً وروحاً  
هائماً وصوتاً هافياً يشرب بالأذن صرفاً ولا تشغل العين بمونق زهره  
ويستريح الفؤاد إلى نسيمه ويتخلى من الشجى بحب مجتهره ، ويأنس الصدر  
إلى هديله وينجو بالقلب من حوره ، فغنير على طين ابن آدم أن يجشم  
احتمال الفتنين جميعاً .

## الخطابة والكتابة

زارني مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صغير في رأى العين أو العقل ، ولكنما أعنى أنه في حديثه كالفرع ، لا يكاد بواقع موضوعنا حتى يتركه إلى غيره ويثب عنه إلى سواه ، . . وسألني فجأة وبلا مناسبة تقتضى ذلك : « ما هو أحسن تعريف للكاتب ؟ » ومن عادتي حين أجالسه أن أنظر إلى شفتيه دون سائر وجهه ، وما رأيته قط يهم بأن يدير لسانه في فجوة فمه إلا توقعت أن يدهني بجديد ، ففي مجلسه امتناع التنقل وفي حديثه لذة المفاجأة ولكنه يتعب الجليس بما يكلفه من الجهد في التماس الصلة التي في ذهنه بين المسائل التي ليس بينها في الظاهر أو هي علاقة . . فلما ألقى إلى سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهيني الجواب قبل أن يطير إلى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعقاب » لصاحبها دسنيوفسكى ووصف السكر فيها وكيف كان يعب في « الفودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شمالاً ويميناً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحي الذي له طبيعة ذلك السكران ! واشتاق نفسي أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ » .

قال : وهل في ذلك شك ؟ إذن فيم أسألك ؟

قلت : فإن لي شرطاً ؟

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالني بإيضاح .

فأطرق قليلاً ثم رفع إلى وجهها كالدرهم المسبوح ، ونظر إلى بعينين مظلمتين كالكهفين وقال بلهجة المستسلم إلى قضاء الله وقدره « قبات » .

فقلت ، وتكلفت السم والوقار والجد ، وزويت ما بين عيني ،  
وغرزت عتقي بين كتفي ، كأنما أوشك أن أفضي إليه بنجر ضخم ،  
أو أنطق بحكم ، : « الكاتب ، ياسيدي ، هو الذي لا يكون وحده حين  
يكون وحده » ! !

فحماق مبهتاً ، ثم هز رأسه يمنة ويسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلى  
يده في صمت ، ومضى عني حاسباً أني أسخر منه ! وقد انقضت سنوات  
طويلات ، ولكن صاحبنا لا يلقيني بعدها إلا صامتاً ولا يناولني يده إلا  
مطرقاً ولا يغتفر لي هذه الدعابة الخفيفة التي ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدري ماذا أذكرنيه الآن ، غير أني  
لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعد كلمتي تلك التي  
أسخطته إلا جداً صرفاً وإن لم أكن أعني ما أعني الآن ، فقد صارت  
الدنيا في نظري مدرسة حقيقية سوى أنها سخيفة ؟ يتلقى المرء دروسه فيها  
حين يكون بين الناس ساجداً معهم على متن الحياة يصارع أمواجهها ويغالب  
أثابجها ، حتى إذا كر إلى الشاطئ وارتقى على رماله ليريح أعضائه  
ويستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه ويحبل نظره  
فيه كالتلميذ ، بعد أن ينصرف عن المدرسة ، يقلب صفحات كتبه ودفاتره  
ليستظهر ما فيها ويثبتته في ذاكرته ، ولكنها كما قلت مدرسة سخيفة تقتضي  
فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتتصرم أيامه وهو لم يحذق المدرس  
ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندي في أنه لا خير فيمن يحس حين يكون وحده أن حوله  
فراغا . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم عنه  
في سماء نفسه نجم من أمل أو فكرة أو خاطر أو خيال ؟ ؟ إنه إذ ذن  
ليس سوى طفل كبير كل حيويته في أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب  
له يلاعبه !



كان « يكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « إن بعض العقول ملائم لما يمكن لإرساله دفعة واحدة أو في زمس وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا ينال إلا بالسعى الطويل » والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثاني نمط الكتاب ، ولقد سمعت في حياتي خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينعم بالحياة وبمنجرتهم ، ولكن أقوامهم وأعلامهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التي قالت القردة عنها فيما روى ابن المقفع في كليله ودمنة « لعل أفضل الأشياء أضخمها صوتاً وكان يخيل لي إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن في وجهه زوبعة ثائرة أو بركاناً فائراً ، وكأنه حين كان ينهض ليتكلم « بلاس » الذي حدثتنا الأساطير أنه خرج من رأس « جوبيتر » شاكياً مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى في كلامه يعلو ويهز كالنار المندلعة ، ويقنع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شكله في نفسه ، وكان يجزم ولا يتردد ، ويبت ولا يتلغم ويقرر ولا يناقش ، ويعد ما شاء أقضية مفروغا منها ومسلماً بها ، ويتزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو إيماءة أو ابتسام — ة أو دقة على المنضمة ، كأنما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حداد تمزق الظلم الذي قام متمرداً عليه وتبعثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، وإذا ذكر بلاده وفجائعها خلته « أنطونيوس » واقفاً على مجثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية إلى الثورة والانتفاض ، وكانت عينه تلتهم بنور الوطنية وصدره يعلو ويهبط جائشاً بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . ثم كنت أتلو خطبته في المساء أو الصباح فاعجب لتفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال وأكاد أقول إنها غير ما سمعت أذنأى منه . لأنها ليست سوى الرماد الذي صارت إليه النار التي كانت تزغرد في مسمعي ولأن الإشارات المقوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذي يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية .

ولعل أقوى الخطباء فعلاً في نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً لا يكون إلا أشبههم بها وأقرهم إليها وأقدرهم لذلك على النزول إلى مستواها ، وليس في وسع الخطيب إذا شاء أن يبلغ من السامعين ما يشتهي ، أن يجاوز السطح أو يهوى إلى الأعماق ويطلب الأغوار ، وإلا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به . وتأمل ما تظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لي من أي شيء تراها مبنية ؟ أليس قوامها الألفاظ المبتذلة والعبارات المذالة وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتتفاعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعال بألباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولا تدعهم خياراً ولا تركهم فاعرين أفواههم كالبلهاء ، ولا يحول دون وقوعها في نفوسهم حائل من تعويض أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبه ولا تصدمه ، ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة إلى العمق أو الابتكار وكلما كان أدنى إلى طبقة الأوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم فإن حائل الجيش كما يقول « نوردو » لا يفصل ثيابه على قد جندى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط ويقول نوردو ، وليس أصدق مما يقول ، « تصور أربعمائة من طراز جويته ، وكانت ، وهلمهولتزو وشكسبير ونيوتن ، وإصراهم محشودين في مكان واحد ليعثوا شأنًا عملياً ويبدوا آراءهم فيه ! قد تختلف خطبهم عن الخطب التي تلتقي في المجالس النيابية - وحتى هذا مشكوك فيه - ولكن ما يخلصون إليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب سوى أن كلا منهم - فضلاً عن خصائصه التي تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة - قد ورث خصائص الجنس التي يشاركه فيها ، لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشرايع أيضاً - ونقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركاً لا تكاد

تفاوت قيمته نرمر له بهذا الحرف «ا» وأن الأفراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشيء آخر خاص يختلف باختلافهم وينبغي أن نرمر له بحرف مختلف في كل حالة مثل «ب» و«ج» و«د» الخ . والآن فلنفرض أن أربعمائة من العبقريين اجتمعوا فإن النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا أربعمائة «ا» وباء واحده وجيم واحده ودال واحده وهكذا . فلا يسفر ذلك إلا عن أمر واحد هو أن نحرز الألفات الأربعمائة نصراً مبيناً على الباءات والجيمات والدالات المفردة أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب على ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تتألم . ولقد تعلمنا منذ زمن بعيد في المدارس أن المختلقات لا تقبل الجمع ، وهذا في الواقع هو السبب في أن من الممكن أن نتصور مجتمعاً من الأفراد الباعدين لا من الآحاد النوابع . ومن المستطع — إذا طرحت الأمر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية في مذاق توابل الكرب ! أما في قيمة نظريات الحياة فلا سبيل إلى ذلك . والأرجح في الاحتمال — إذا أحصيت الأصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية بصوت واحد هو صوت صاحبها 11»

ولكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً ، عليه أن ينضج ما يريد أن يفضى إلينا به ويطاعنا عليه وإلا كان لا شيء . والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد والعبارة عما يدور في خاطره ويتمثل لخياله ، والقراء مستعدون أن ينتظروا ويصبروا حتى يهتدى إلى ما ينبغي ويوفق إلى ما يشئ ، وهو مطالب بأن يؤدي ولا يمتل دينه للحقيقة ولطبيعة . إذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد ، والناس ينظرون إليه نظر التلميذ إلى المعلم لا الظهير إلى الظهير فن حقهم أن يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحري الحقيقة وحسن البيان وعلو اللسان وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر وما ذكر على الأيام

من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه وأن يجيل لحظه في سماء فكره لا في وجوه الجماهير ، وليس ما يطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حد القلم بل هو ملفوف في طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة إثر أخرى ويلتدس لها العبارة التي تجاوها في أحسن حلها وأقواها .

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجماً كافياً من ثناء الناس عليه في وجهه وتصفيقهم له وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول وما يشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه وليس كذلك الكاتب المسكين الذي يسهر الليل لمن ينامون عنه ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يأتي الخطيب من يصفق له ويهتف ، ويدخل السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحس وقعه ويشهد ذلك بعينه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما يجري مجراه . غير أن هذا لا يضره ويحسبه من التشجيع أنه أمين وفي للحقيقة والطبيعة وله قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه .

ولقد كان هو قارئاً قبل أن يكون كاتباً وليس يخفى عليه لا من الغريب عنه ما يجده القارئ من المتعة وما يفيد من الغبطة . والخطابة فن أجوف إذ اعتبرت القيمة الحقيقية للكلام لا التأثير الذي تحدثه والوقع الذي يكون لها فن حتمها أن يكون الجزاء عاياً التصفيق الوقتي وما إليه من الأعراض الزائلة وفن الكتابة أسمى وأجل فعزاه من جنسه معنى سام لا مظهر نخشن عامي .

## سر غرفة ؟؟

أم وحى صورة ؟؟

لأدرى أحلم هو أم حقيقة ، ولكنى سأقصه على القراء وأكل الفصل  
إليهم ، وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك منى أنا الذى أعيش بين الأشباح  
والطيوف ، وأغدو وأروح فى حاشية منها وأستوحش إذا افقدتها فأزورها  
وأستثيرها من مراقدها وأحف نفسى بها وأنقادها وأعاطيها التذكر والحديث  
حتى ننثنى جميعاً « كأننا قد تعاطينا المداما » ولكل واحد من الناس حياته  
الخاصة ياسيدى القارئ لك مجالس انسك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك  
صاعداً ونازلاً على جانبي المقياس ، ولى أشباحى لا أرتاح إلا إليها ، ولا أرسل  
نفسى على سجيئها إلا معها ، ولا تخلص أنفاسى إلا بينها ، ولا أستعذب سوى  
حديثها وإن كان مثله من غيرها حقيقاً بأن يثير الكبرياء ويكوى الغرور من  
الأزراء ولكم قالت لى ، وأنا اخبط فى الصحراء معها ، « أنعرف هذا الوجه  
الذى يطلعك من الظلام ؟ » فانظر إلى حيث تشير فلا تأخذ عينى شيئاً  
غير الظلمة الدامسة فتقول لى « لا تحول نظرك عنه تستوضحه » فأغرز عصاى  
فى الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظى إلى حيث توىء فيرتفع مثل الاستار  
واحداً بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثنى إليها  
الرأس سائلاً عن صاحبه فتقهقه وتجلجل ضحكاتها فى الفضاء وتقول « كيف  
لا تعرفه ؟ » فأعجب لانكارها عجزى عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس  
فيه ما يحرك الخاطر أو يمتاز به من المعارف عن مثات الأوف من أمثاله ،  
فتنطقه لى فلا أزداد به إلا جهالة وله إلا إنكاراً ، فتبسم ابتسامة السخر  
وتقول « لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك ! ولكن دعنا من هذا ولنتركه  
للظلام يحتويه فما هو بأهل لغير ذلك ! »



والآن إلى القصة ، إذا جاز أن تسمى كذلك ! . .

أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفي إحدى الليالي أبت إلى غرفتي في ساعة متأخرة وقد أدارت رأسي مناظر الدنيا على ساحله ؟ ومن حقها أن تفعل ذلك بآبن الصحراء وساكنها ؟ وكان الليل عاتياً .

كان شياطين الدجى في أهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى إلى صوت البحر الخائش واستنشيت ريحه ، فدخلت على بلا استئذان غادة في حفل من الزينة دخول من هذا مكانه: ونزعت قبعها والقها على منضدة هناك وأقبلت على المرأة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خضله الذهبية حول إذنيها وتفرقه على جانبي جبينها وهي تقول إذ تنظر إلى نفسها بادية في صقال المرأة من قريب ومن بعيد وتصعد طرفها إلى صدرها وتديها الناهدين الراسخين ونحرها الذي يضيئه عقد من اللؤلؤ ، وتصوبه إلى قدميها الصغيرتين وتكشف عن ساقها في جورب بلون الجلد « من مبلغته إلى هنا الساعة ؟ ! إلى أتعبه حيث يكون من الأرض ولا أدعه يفلت مني ، وقد أكون أدنى شيء إليه وهو لا يدري - إلى مباءات الخالمين ، وتحت الأشجار التي لا يشعش فيها غير البوم ، وإلى سيف البحر حيث الأيج يرمى بالزبد - ولكني ، مع الأسف لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو أسمع صوته أو أشعره بوجودي وإن كنت منه كظله ! ! وقد يناجيني فيروى سمعي بنجواه ويطاعني على ما كنت أجهل وما كان يطويه عن جهده ويكتمني ما وسعه الكتمان ، فأعجز عن جوابه إذ كنت لا أملك غير الاصغاء ! فياليت من يبلغه عن ذلك ليعلم إلى ما زلت على وفئ الذي الزمنيه والذي لم أندم عليه ! وإن تبرح مخباتي قط تلك الليلة التي طلقها بيننا الحوار وكاد ينضى إلى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه « هذا » وأنا قاعدة على سريري ، وحلق في عيني وأوما إلى بسبابته وقل « ستفني لي على رغم أنفك هذا ( وغرزت أصبعها في المرأة ) أتفهمين ؟ » فدفنت

وجهي بين كفى وانطلقت أبكى فما عبأ بي شيئاً ! فيأدا كان أقساه في تلك الليلة ! ولما طل الأمر ولم تجف عبراتي صاح بي بصوت قوى « خير لك أن تنهى عن هذه الحماقة التي ان تغنى عنك شيئاً ولقد صارحتك بعزى ولو نقل هذا البحر بالغرايل ما تحوات عنه . وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوسوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطنيزية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أنى فاعل — بسوطى هذا وذراعى هذه، إذا احتاج الأمر إلى هذين ! » وقد فل . . . ولكنى ذويت . حتى صرت إلى ما أرى ! » .

وتراجعت عن المرأة ووجهها إليها ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت إلى السرير فارتمت عليه برهة حدثتني النفس في خلاها أن ألوذ بالفرار ! والحق أقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمذب مكانى ولم أستطع حراكا حتى لكأنى استحللت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم أعتدلت كالمفيق من غشية وجعأت تعجيل عنيها فى الغرفة وتنفص كل ما فيها . غير أنها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت إلى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه إنى فى أمان !

« نعم كانت لياة داجية كهذه ، عاصفة الرياح مثلها وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير أنى كنت لا أنذاك أفلت من عنقه وأشبح بوجهي عنه كلما أهوى إلى بغمه وأمنحه جانب محياى دون صفحته . وأتتى أن تاتى عيوننا أو أتلقى أنفاسه الحار بغير خدى . وأعيتة الملاطفة وحز فى نفسه فتورى فاعتمد على كوعه وهو مستلقى إلى جانبي وألح على يستخبرنى عما بى وعن عاة ماكان بادياً على من الزهادة والسآة ويسألنى ما بلحفونى قد جفهاها الغمض ويقول « ماذا يجول فى هذا الرأس الصغير ؟ أى هم يقض مضجعاك ؟ »

فأقول مرأية « كيف يستضيفنى الهم وأنا إلى جانبك ؟ »

فيقول « أتراني أخلفت لك وعداً أو أسأت بكلمة أو إشارة ؟ لقد نحييت عنك ذراعي في جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير مني وأحب ؟ أم خاب لك أمل أم ماذا ؟ قولي بالله ؟ صارحيني ! لا تخشى شيئاً ! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان ! »

فأطبقت جفوني حتى لا أراه . ووضعت ذراعي على جبينى لاكتشف السر بيئى وبينه وليث هكذا لا أنيس بحرف كالذى يريد أن يستغرقه حلمه - نعم كنت أحلم ولكن بغيره - وأسفاه ! بذلك الذى أقسمت له وأنا بين ذراعيه . وفه على شفتى يوسعهما لئلا لا أساكن سواه أو أبادل غيره القبلات حتى الممات . والذى لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج . . . فهمت أن أقول له « أسمع يا صاحبي ! إنك زوجى . . . لا أنكر ذلك ، ولو أنكرته لما أجداني الانكار شيئاً ، ولكنه كان لى صاحب - أو حبيب إذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الأشياء أسماءها كيفما كانت - وهو من خلقوا ليعشقوا ، ولا تكاد تراه حتى تتعلق به وهواه ، ولكنه فقير لا يملك أن يبلغنى من الدنيا منأى ، وليس يخفى عليه أنى مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة النقر وذلة الفاقة ومراقعها ، وأن صبرى على الاقتار عسى أن يكون عسيراً فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسى وأتجنى وأبدى الزهادة فى حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت فى جملتهم ! حتى انتهرنى أهلى واستحمقونى وأشبعونى لوماً وتقريعاً فقبلتك بعلا . . . أنظن أنك لا تعرف صاحبي هذا ؟ ؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف إذا جهلته ؟ ؟ ولقد عاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الأيام على بلوغ أربه ولا يدري أنه آت بعد الأوان ! . . وأن من حقه أن أكون له دونك ، وقد كتب إلى يتقاضاني الوفاء الذى أقسمت له عليه فألطب كتابه النار التى كنت اخالها قد خبت . . وماذا عليك لو تركتني له ؟ القنى له ولو كالعظمة أن شئت ! وأنت امرؤ لا يرى الدنيا إلا سوقا تفسدها العواطف .



وقد شاء ربك أن يرد قلبي إليه ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ،  
تعرض قضاء الله أو تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترى إلى بزمي .  
ولأن تدعني جاهلا ما كان من أمرنا أفضل من أن تبقي فتعلم ما نظويه  
عنك . . نعم فقد رأينا أن الزواج لا سبيل إليه بعد أن بنيت أنت بي ،  
فتوافينا إلى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاقدنا أن نكون زوجين وأشهدنا  
على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح » وأنه لعقد لا يعترف به الناس  
غير أنه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجي وعقيدى أولى من  
أن تكونهما أنت ! ! ولا نكران أن الأمر كان موكولا إلى الاختيارى وأنى  
آثرتك عليه أمام الناس ولكن هذا كان لا مندوحة عنه ولا بد منه :  
وهل كنت تتوقع مني غير هذا في سبيل التحفظ بشرفي ؟ ؟ نعم شرفي !  
ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستارا لحينها ! . ولا يخفى على أنى  
من أجل هذا أستحق اللعنة ولكنى كنت مضطرة إليه اضطرارا . فأنت  
ترى أن كل شيء يدعوك إلى تركي وإطلاقي إليه . : »

هممت بأن أكشفه بهذا ولكن شيئا عقده لساني وألجم في ، فنهجت  
ظهري واستقبلت الحائط . . وكأنما مل طول صمتي وآلمه انصرافى عنه  
واستدبارى إياه كلما حاول أن يتألفنى من نفرتى فجذبني إليه بعنف أو  
لعله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش له نفسى جسم لى الأمر فهاج هائجى  
واضطرم صدرى وثررت به أرجمه بكلام لا أملك حبس لساني عنه وأقول  
له فيما أقول :

« انى أبغضك . : أمقتك من أخمص قدمى إلى فرع رأسى » !

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش .

قلت : « لقد قلتها ! ألم تسمع ؟ لقد كان غيرك أولى بي لو أنصفت

المقادر ! ! »

فوئب عن السرير إلى قدميه كالنمر الهائج وجذبني إليه من شعري

وصاح بي بصوت وحشى أشاع الرعب فى كيانى « من غيرى هذا ؟ افصحى  
أيتها اللعينة ! »

فلم أستطع جوابا وعند الخوف والألم لسانى وأنا جاثية عند قدميه  
ونحصل شعرى ملفوفة على يمينه ، وشماله على جبينى يرفع بها وجهى إلى  
عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعرى وقال « انهضى »  
ودفعنى إلى السرير « اسمعى ! ان أقتلك فأنت أهون من ذلك وعندى ماهو  
شر من القتل . فاعلمى أنى لست كغيرى من الرجال ! إنك زوجتى « أنا » -  
وعض هذه الكلمة - وستظلين زوجتى « أنا » رضيت أم سخطت ! ولست  
أعاباً شيئاً بالناس وما عسى أن يقولوا ، ويميناً ليس عندى لك سوى السوط  
أمزق به جلدك وأطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن أن يعشش فيه من  
من الأباطيل ولأطعمنك إياه كلما أجاعك إليه الأهواء السخيفة . »

فبكيت وسرت فى بدنى كمرعدة الحمى وتصاكت أسنانى فصاح بي أن  
« أزجرى عينك عن البكاء فليست ممن تليهم الدموع أو تخدعهم ! ويظهر  
أنك تغفلنى أو كنت تحدثين نفسك بتغفلى . وسألقى عليك درساً يؤدبك  
غير هذا الأدب . »

فلم أجبه وظهرت على وجهى وهيتى أمارات الاستخذاء والضراعة  
ولم يتركنى حتى أقسمت له أن أصدقه الولاء وأحصه الوفاء .

ثم نهضت إلى المرأة مرة أخرى وهى تقول « وقد أخلصت . وحمد  
لى إخلاصى وتبنى غلام صاحبى ولكنى صرت إلى ما أرى ! .. وقد أسمع  
أحياناً يهتف بى مناجياً « أيتها المرأة التى افتقدتها ! من لى بان أراك كما  
كنت تبدين لى ! لشد ما أتعثر الآن فى سبرى بعدك ! وما أكثر ما يتسافط  
حولى من أوراق الحياة وأزاهيرها ! » ولكنى لا أستطيع أن أجيبه حين يهيب  
بى وإن كنت أتبع له من ظله . »



وتفشعت السحب عن القمر فنفذ إلى الغرفة نوره فرفعت طرفي إليه ثم  
 نثيته إليها فإذا بالفتاة قد غابت!.. ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال..  
 فخطر لي أن أعالج الباب لأنظر أمفتوح هو أم مغلق وأن أرى ماذا في  
 الدولاب وتحت السرير! . ولكني استحييت من نفسي! . وأشعلت  
 سيجارة وجعلت أدخنها رائحاً غادياً في الغرفة حتى إذا قاربت الانتهاء منها  
 ألفتني واقفاً أتأمل صورة حسناء! ! فابتسمت وقلت: « أهذا أنت  
 يافتي؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك؟ لشد ما أزعجتني  
 يا سيدتي! فما جزاء من يعايب ضيوفه على هذا النحو؟ أن أواريك عن  
 عيني! نعم! »

وقلبت الصورة وأدرت وجهها إلى الحائط وقلت وأنا أتمطي على  
 الفراش:

الآن أستطيع أن أنام في أمان من خيالاتك أيتها الحسنة الماكرة!

## متاعب الطريق

ليس أخطر من التعميم في الأحكام ، ولا سيما إذا كان الأمر خارجاً عن دائرة العلوم المبسوطة وخصوصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط إلى مدى بعيد ، وأن يأمن الخطأ إلى حد كبير حين نقول إن المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتغشى به العاطفة ، قل أن يفكر في الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو في ماله من الصفات والمؤهلات التى تعين عن التوفيق أو تحول دونه أو في طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس إلا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله إلى قوته وكبح عاطفته إذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور ، كما أن فيهم من يمضى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتى ينتهى إلى غايته أو يقع دونها . ولكن هذا لا يبنى أن العاطفة تتملكه قبل التفكير وهذا هو الذى نريد أن ننبه إليه لو أن الأمر محتاج إلى تنبيه .

والأديب شبيه بالعاشق ، يعرض له الخاطر فيستهويه ويسحره ولا يجرى فى باله فى أول الأمر شىء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتظت بها شعاب نفسه ، ولا ينظر إلا إلى الغاية دون المذاهب ويشيع فى كيانه الاحساس بالأثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعاً ولا يندر أن يتوهم أنه ليس عليه إلا أن يتناول القلم فإذا به يجرى أسرع من خاطره ، وإذا بالكتاب تنوالى فصوله وتتعاقب أبوابه . وتصف حروفه ويطلع ويغلف ويبيع . ويقبل عليه الناس يلثمونه وهم جذلون دهشون معجبون .

ولإذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقين وسار مسير الشمس في الشرق والغرب  
 وخلد في الدنيا إلى ما شاء الله ! ! يكبر كل هذا في وهمه لحظة تطول  
 أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أدائه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة  
 ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذاك ، ويستطرد هنا ويمضي إلى هناك ،  
 ويدخل شيئاً ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك في قوالب ملائمة ينبغى أن  
 يعنى بانتقائها ، وأن يتوخى في الأداء ضرورات تقسره عليها طبيعة  
 الخواطر أو المسائل — هذه تتطلب أيضاً وتلك لا معدى في سوقها عن تحرى  
 القوة في العبارة أو اللين أو السهولة أو الجمال أو غير ذلك . وآخر به حين  
 يكابد كل ذلك أن تفر حرارته الأولى وأن يدب الملل في نفسه ، وأن يضجره  
 أن يضطر أن يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتب الفكرة الرائعة الحليمة  
 التي استغرقت وقتته وفتنته ، كلمة كلمة . ويتناول منها جانباً بعد جانب ، وأن  
 يعانى في أثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الأداء ، وأن يلدغن لاحكام  
 الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر أحياناً إلى ما كتب  
 ويعيد فيه نظره ويجيل قلمه مرة وأخرى وثالثة إذا احتاج الأمر إلى ثانية أو  
 ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغيثته يوماً وآخر ، واسبوعاً  
 وثانياً ، وشهراً وعاماً وأكثر من عام أو أعوام إذا دعت الحال . وفي أثناء  
 ذلك كم خالجة عزيزة يضطر أن يتزل عنها ويدعها مدفونة في طيات نفسه  
 لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وإبرازها في الثوب الذي ينسجم  
 عليها ويجلوها للقارئ كما هي في ذهنه أو لأن كلمة واحدة — واحدة  
 لا أكثر — تنقصها لتستوفي حقها من التعبير الذي يكفل لها الوضوح أو  
 الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصاً أو غامضاً وهو « يحسه » تاماً ويتصوره في  
 ضميره كأجلى ما يكون ؟ وما كل أمرىء يدخل في مقدوره أن يحتمل  
 هذا المضض كله . ومن الكتاب من لا يكاد يلتقى بأول صخرة في الطريق  
 حتى ينكص راجعاً وهو يشعر بمرارة الحمية بعد الغبطة التامة التي أفادته  
 أياها الفكرة حينما نشأت ، ويروح يطير من فكرة إلى أخرى ولا يكاد

يصنع شيئاً لأن العواطف التي لم يقدرها تغلبه ، والوعور التي لم يتوقعها تهيبه ، والمشفات التي لم يفكر فيها تستمه .

والأدب إلهام وفن . ولكل فن أدواته وآلاته ، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد ، أى من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذلك وغيره بمقصورة على الأدباء ولا هى بوقف عليهم ، ولكن كم ممن نقيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هى فى نفوسهم ؟ ؟ الألفاظ ، التى هى أدوات الكتابة موجودة ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب . كذلك الاصباغ والألوان حاضرة من شاء مد إليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من ذا الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصوراً ؟ وكذلك لا يغنى العلم بالقواعد والاصول . وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل إلى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعانى ويجول فيه من الأمواه ؛ فكيف بذلك ؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، أو تقوية الذقن معبرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاجة الخلق ورضى النفس ؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هو من السحر أو الدلال ، أو القوة والحلال ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح ؟ وكيف يجعلك حين تنظر إلى الصورة الحاكية تشهى — مثله حين يجتلى الأصل — أن تغمض عينيك وتنقل نفسك إلى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات ؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج إلى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة وملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر فى القوالب

الملائمة ، والقادرة على إحداث الصور المطلوبة في أذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر إذا رزق الفن وحرر الالهام — صانعاً كهذه الآلات التي تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها وإحكام صنعها ولا تحس أن يد لإنسان حتى أو قلبه وراءها .

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟؟ أين ذاك الذي يطالع الكتاب أو الديوان ويعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذي بذله صاحبه والغصص التي تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والاداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟ أنه لا يقدر ذلك إلا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها . وشبيه بهذا أن يقف رجل من الأوساط العاديين أمام صورة يتأملها ويدبر فيها عينه ويعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدري أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزواج بينها وساقها بل قطعة حية من نفسه إذا نظر إليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الألم واللذة والتدم والغبطة والغيط والكمد والسخط والرضى والأمل والخيبة ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة .

لى صديق مصور مخلص لفنه دعاني مرة إلى محله — وكان هذا منذ سنوات ثلاث — وقال « إني أريد أن أرسمك لأنى أتوسم في رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية » فشكرت له ذلك وقلت له إن عندي من الغرور ما هو فوق الكفاية ولم يكن ينقصني أن أعلم من فنان مثلك أن رأسي جدير بالتصوير ، ثم جعلت اختلف إلى داره في الأوقات التي يعينها وأجلس إليه في كل يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة . فكان ربما بدأ مرتاحاً إلى العمل مقبلاً عليه مهتماً ثم لا يلبث أن تعثره الكتابة ويملو وجهه الوجوم فتتبدل يده ويثنى رأسه على صدره ثم يرفعه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذي يهم أن يتناول اللوح فيمزقه ويعمد إلى فبرمى رأسي

بالكراسى والألواح ويطر دنى رفسا بقدميه ! ! وكنت أحاول أن أرد إليه ما يعزب عنه فى هذه اللحظات من خلقه الوداع وأقول له إن هذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالا وكان فننا أشق وأمر فيقول كلا ! إنكم أيها الكتاب تستظيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحداً فى أثر واحد فان أغفلم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفتن القارئ إلى ما أهملتم ، وهل كان يدرى قبل أن يقرأ كلامكم أنه كان فى رموسكم كذا وكذا فأودتم منه هذا وأطرحتم ذلك ؟ ولكن صورة الوجه على اللوح إما أن تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر إليها . وقلمما يفوته التقصير فى انطاق الوجه وأداء المعانى المرتسمة على صفحته ، وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الأفهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها ولكن شخصية الإنسان لا تنقى على الإنسان وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا معدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ومن هنا كانت أشق وكان الإخفاق أخلق بأن يكون أبين .

وأذكر أنى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً « ضخمًا » فى فلسفة الشعر وأن أجعل هذا عملى الأدبى فى حياتى وقلت لنفسى حسبى به إذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعد لها العدة الكافية وأقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعيدة بموضوعى ، وقسمت الكتاب إلى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه وحصرت كل ما أريد أن يتفرع إليه ثم لم تزل تقوم الموانع وتعرض الحوائل ومضت على وعلى كتابى هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز إلى هذه الساعة المقدمة وفصلين أحدهما هو المدخل ! ؟

ويظهر أنه ليس أعون على المثابرة والصبر من « خفة » الاحساس ومن



أن يكون المرء بحيث لا تهتاج آماله أو مخاوفه إلى درجة من الألم والالحاح لا تحتل ولا يسع المرء معها رفقا بنفسه وابقاء عليها إلا أن يفرغ من الأمر الذى يعالجه ولو خسر فى سبيل ذلك غايته ، وأعنى أن يكون المرء هادئ النفس قليل الاكتراث قادراً على الانتظار مطيقاً للصبر راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح إلى كل ما عسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى إلى حانة تباع الويسكى بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، مادام هو الذى يفعل هذا أو ذاك ومادام رضاه عن نفسه لا يضعفه سبب من الأسباب وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظاً من البساطة الطبيعية ترفعهم وتدرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطغى بهم البواعث القوية وتلج بهم الأشواق الحادة والرغبات الجامحة وتدفعهم إلى محاولة الثوب وتعجلهم ولا تدع لهم فرصة راحة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الأمة الانجليزية لم تنبغ فى شيء نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره إلى الإرادة والعاطفة ، وأن الأمة الفرنسية من « أفصح » الأمم . ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها ويرمز له بما هو أقرب إلى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلقى إليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشيداً لتحريكها وحفزها إلى العمل ومن هنا كانت الأمة الفرنسية أضعف الأمم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته إذا كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !

## مجالسة الكتب

### ومجالسة الناس

كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال ، وكانت الفكرة حاضرة ، والورق مهياً ، والقلم مبرياً ، ولكني أشرفت من النافذة فأخذت يميني صبياً يلعب بالحصى ويهيل الرمال ، وفي ناحية أخرى فتانان تتحدثان وتتضحكان فقام بنفسى سؤال لم أستطع التلصص منه على قرط ماجاهدت : ماذا يعبا هؤلاء بما كتبت أو بما عسى أن أكتب ؟؟ بل هبني جعلت الصبي والفتاتين موضوع مقال وأدبرته على ما أرى منهما ومنه ؟؟ أيكترثن لي أو يحفلن بي وبما أسطر؟ كلا ! ولعل أخرى بي أن أسأل : أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بها من أجل أني أجريت هذا للقلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليه لما أحس أنه موضوعها ؟؟ كلا أيضاً ومع ذلك أباهي بما قرأت ، وأعتز - على الأقل فيما بيني وبين نفسي - بما كتبت ، وأفرح بالخلاصة تدور في لحظة نفسي ويجيش بها صدرى برهة ، وقد أضعها في كفة وأضع الطبيعة كلها في كفة أخرى ! وبعبارة أخرى أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم انقلب بجزء من يفعل ذلك !

أى شيء هذه الكتب ؟ ستقول إنها عالم حافل بالمتع ، وأنها لكذلك ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد ؟؟ وهى ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا إياه من معارفهم وخواطهم وتجاربهم غير أن هذا ليس معناه أنها كل ما يمكن أن نعرف أو نخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياة كتاب أوسع وأضخم من كل ما حوت المكاتب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة . ولقد عبر « هولاكو » على جسر من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقل الزمن

رجله ، ومضت الحياة في طريقها كأن لم يحدث شيء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحد ولم يضمن فيها نفسه ، ولم يخلق في تحبيرها أيامه ، ولم يبل في إخراجها حياته ! بل كأن لم يكن أصحابها قد خلقوا قط ! وهل ما أخرج الكتاب من آثار أعلامهم هو كل ما كان يمكن أن يكتب؟؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب إلى بعض ما كتبوا ليس إلا بعض ما اضطرب في صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب الذين ظهروا في هذه الدنيا ليسوا كل من يحس ويفكر قرب تاجر يمسي ويصبح بين السلع جيدها ورديتها ، والمساومات شريفها ووضعها ، والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمرة حانياً ظهره للأثقال هو أحسن بالحياة والطبيعة من ابن الرومي ، وقد تزدرى أمياً جاهلاً وهو - لو علمت - أحد طبعاً من المتنبى ، ولكنه الغرور ولا أدري ماذا أيضاً - فليس أبغض إلى من التقصى - يخيل لنا أن الحياة تعقم بأمثال من ظهوروا ويظهرون فيها من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن إليهم ! وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون إلى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما أنها لا تزيد بمن عرف من أبنائها « المعارف » ! والحياة كالأوقيانوس الأعظم لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منه ! وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فاذا إذن ؟ لا شيء ! تظل الأرض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن إضاءتها كما تفعل الآن إذ نحن عليها نروح ونحىء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلاً فجيلاً ليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة في نظرنا - لو أنه بقى لنا بعد الموت نظر - ونعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل ، أفنتظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ إذن لا « تصوب » تطرك يا مازنى إلى هذه الحيات الصغيرة

الساذجة التي تبدو لعينيك إذ تطل من نافذتك ولا تبسم إذ تجتلي مظاهرها كأنك تزدرىها أو « ترثى » لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فإنها حافلة بالمتع والعجائب كهذه الكتب التي تعنى بها ولا تكاد تحفل ما عداها ولعلها - لو بلوتها - أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه .

وما من ريب في أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ، لخرج المقال من يدي على غير ما يخرج الآن ، ولكان الأرجح في الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرائرها ما أسخطني عليها ويحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندي غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمع بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكرهه لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحتها الله ردتني كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش !!

ألسنت قد عشت بين خير العقول وأخس النفوس ، وألفت أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقية الممحصنة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفرن فى عرضها وإبرازها ؟ فما عسى الصبر لإذن على أحاديث المجالس الخاوية المبتذلة ؟ ؟

كيف لمن يقضى الشطر الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، بإطاقة المستوى الذى لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟ ؟ وما للكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبح فيه ولا ظفر ، وإنما هى العادة التى يقولون عنها أنها طبيعة ثانية : وما مثلى إلا كمثل الذى نشأ فى بيئة أرستقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ، مثل هذا

لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهارة أو العملة وباعة الأسواق . ولا شك أنه يحادثهم أحياناً ويحتك بهم قليلاً ولكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر إلى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة للمها واستثقل وطأتها على كل صبره . والعكس صحيح أيضاً . وليس السبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين نشأتهم وتتباين طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والأحاديث تدور على الأكثر في هذه الدائرة . ومن هنا لا يطرده الحديث في مجاريه العادية بين من ألفوا الكتابة والقراءة وبين سواد الناس . ذلك أن الكاتب اعتاد التفكير وإطالة النظر إلى المسائل من كل الجوانب التي يتفطن إليها ويسعه أن يحيط بها ، وأن يعرضها مرتبة مبنياً بعضها فوق بعض ويسوقها في عبارة يتخيرها لها ، وليست الأحاديث كذلك . فهي مقطعة متوتبة سطحية في الأعم والأغلب ، ولا يزال الناس ينتقلون في مجالسهم من موضوع إلى آخر ولا يترثون هنا أو ههنا ، فيكون الكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت . أو يثقل على جلسائه . ولا شك أن غشيانه المجالس واختلافه إليها يصقله ويعدله لها ويلدله ما تقيمه عادته من العقبات وقد ينفعه ذلك ويحرك ذهنه ويطلقه من القيود التي تحفه بها مزاولته فنه . ولكنه لا شك أيضاً في أن روح الأحاديث هو التعاطف وإن تباعد ما بين الجلساء يضعف هذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين . والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه لأن استطاعة ذلك معناه أن المرء يسعه أن يخلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منها نصيباً وكما أنه لا يفهم رموز الماسوني حق فهمها إلا صنوه وقرينه كذلك لا يتم التفاهم إلا بين القرعيين . على أن بعض الناس يذهبون إلى أنه لا خير في محادثة القرناء إذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ما عساك تقول وإنما يحلو الحديث وتجدي — كما تجدي الصداقة —

بين المختلفين : وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين في مستوى واحد لا يستوجب التطابق بينهما . وهذه المدارس تلقن التلاميذ علوماً واحدة غير أن هذا لا يجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالفسخ المتعددة من الكتاب الواحد ! وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه .

والكاتب يعنى بالفكرة قبل أن يعنى بوقعها ، وهم الأول جلاؤها وعرضها في أحسن حلاها وأقواها . ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً إلى التأثير ، ولكن هذا لا يشغل من نفسه الحيز الأكبر بل هو يأتي تبعاً لمعالجة الأداء . والحال على خلاف ذلك في الأحاديث فإن المرء لا يزال يدبر عينه في وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذي أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالمثل الذي يعنى بدوره ويصرف همه إلى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع إنساناً أن يفعل ذلك ، من التفكير في جمهور النظارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لا ينفك كما أسلفنا يستنبيء الوجوه ويستخير العيون ويحاول أن يتخذ منها مرآيا يجتلي في صقالها وضاء حديثه وبهجة كلامه ومن ذا الذي لا يعنيه ما يند عن شفثيه ولا يبالي أين وقع ولا يكثر لكلامه أثلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ولهذا لا يسع المرء إلا العناية بأمر جلسائه إلا مراقبة حالة نفوسهم فيرتفع معهم ويخلق إذا رآهم مطيقين للتخليق راغبين فيه مستعدين له ويهوى معهم إذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك :

وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الأديب تلك التي تتألف من الأوساط أديعاء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ماتكتبه لهم . ويفسدونه لإفساداً لا سبيل إلى الصبر عليه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح فال موضوع الذي يردونه منك

إليك لا يعينهم كما يعينك ولا يستمدون الباعث على طرده من أعماق نفوسهم مثلك . وقد لا يدرون عنه إلا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتعزز إذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خراطرك ومعانيك ويلقونها إليك خرقاً فذرة وتصدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على صدق السريرة ويذهب بالإخلاص ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستنادة من الاجتماع ، ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها وبعض ما يقال عنها ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالإعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

وليس من النادر أن يكون الأدب أو العلم أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع في تنغيص متعك وتكدير صنوك . فإذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله وبسط لسانه فيه وسمى كل سخافة « خيال شاعر » وإذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك إليك أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمنا — إذا جبن عن التصريح وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسود الدنيا في عينيك ويملاُ نفسك نقمة على الحياة والناس لإكرامها له !

والأديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشيع أنغامه وتسد نقصها وتملأ فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوله على ما للعبارة وحدها من وقع ، وليست كذلك الأحاديث التى تستمد جانبا كبيرا من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان والاجتماع والجلساء وإشارات ونظراته وصوته . ومن هنا يخطيء كثيرون ممن يبرزون المجالس فيحسبون أنهم يستطيعون أن يظهروا فى عالم الكتابة كما ظهروا فى عالم المجالس ويتوهمون أن الوقع الذى يوفقون إليه فى أسماهم لا يخطئهم إذا تناولوا القلم وأجروه بدلا من اللسان .

وليس — أشق عندى على الأقل — ولا أشد إجهاداً للأديب من مجالس النساء ! ماذا يقول هن ؟؟ فى أى شىء يحادثهن ؟؟ كيف يجعلهن يرتحن إلى حديثه ويتقى إملأهن ؟؟ هن لا يكدن يحملن معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن وما يتصل بذلك من قريب أو بعيد ، وهو لا يكاد يحمل معه سوى آرائه فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذه وتلك ؟؟ ومجالسه الكتب تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه إلا أن يغلف ويوضع على الرف بين أخوته !! وطول العهد بها يشيب النفس قبل إشابة الرأس ، ويطفىء لمعة العين . ويعوق تدفق النشاط الجمانى ، ويغرى بالسهموم والصمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعليق بالمثل العليا وصور الكمال ويشرب النفس حبها ويعلمها نشدائها فإذا راح يضرب فى غمرة الحياة تعثر ولقى فى كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور لخلافه . !



## لولو . . ؟ !

لولو ؟ ! ما « لولو » هذا أو هذه ؟ أهى فتاة حرة المقلد ؟ أم طفل  
 غرير مدلل ؟ أم زهرة نصيرة ؟ أم عصفور مغرد ، أم أغنية شجية ؟  
 إن فى اللفظ ما يشعر « بالصغر » ويكر بالذاكرة لـ « الشباب » — إن كان  
 قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين ، وتكليف  
 العينين ابتسامة الدعابة ولمعة الغبطة ، وتجشيم الأسارير الأبراق ، والنفس  
 محاولة الاشراف ، فإذا هر ؟ لأدرى !! ولعله كل ذلك ، فما أعرف من  
 اللغات إلا ما ليس فيه هذه ، ولقد شبهت عن الطرق « جداً » وارتفعت  
 عن كل حداثة ارتفاعاً أجلسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء  
 وأما الشباب وإيماض العيون وإشراق النفس فإنى أنا القائل :

نضب العزم ، والمنى ثرة العين      لعمرى ما أسوأ القرناء !!  
 شية العزم مع شباب الأمانى !      أضعيف يظهر الأقوياء ؟؟  
 دون ما تبتغى حوائل ضعف      فاجعل العزم والمنى أكفاء  
 أيها « الطين ما ترى بك أبغى !      لست فيما أرى لشيء كفاء !!  
 إن طلبت السماء قلت لى الأرض      أو الأرض كنت لى عصاء  
 صرت حتى النى أفكر فيه      لست أستطيع صوغه والأداء

وانفوس تهرم أحياناً قبل الجسم ، فتعود وكأن الزمان عمرها ، وإن  
 كانت بسنها صغيرة ، وكلما أحسن المرء ديب الهرم زاد شعوره بالتبعات  
 ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحد ، وأن منطق الطبيعة غير  
 منطق ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا

تدور حوله فى صمخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التى تسمى الحياة ، ويرجائها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو . وأن يأخذ على الأيام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلاً يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقاً لى ، فيه شذوذ قلما أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود إلى مصر ؟ » قلت « صباح غد » قال : إذن قم بنا إلى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة فلننض إليه إذا شئت ، ولكن إلى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعينك من هذا ؟ أو ليس كله ساحلاً ؟ فلم أشأ أن أثقل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه ، ونهضنا إلى الترام فركبناه وخليت بين صاحبي وبين سبيله حتى انتهينا إلى آخر موقف ينساب إليه الترام فأنحدر بى إلى طريق لا يفضى إلى بحر ولا إلى صحراء !! وإنما يؤدى إلى درب بين الحقول تقطعه السيارات إلى أبى قير ويترقق على محاذاته جدول صغير ، ثم أخذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقب عن مخبأ فيه وهو معبس محقق فى الأرض بعد خطواته فى هذا الطريق الذى ملنا إليه ، ومعلوم أن الخواطر كالمطاط لا تشغل حيزاً واحداً على الدوام فقد ترى الخطاطر الضخم مضغوطاً فى الدهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنتفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الدهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً إلا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقنى معه إلى هذا المكان .

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيرها عنه فتركها تسقسق له وخليته ينصت إليها ، وسرت إلى بجانبه صامتاً مخففاً الوطئة وصرت أشفق عليه حتى من وقع قدميه . وكنا قد ملنا إلى جانب معشوشب من الطريق حسبته أثر المشى على حشائشه الندية لأن صوت الأقدام فيه أخفت ولكننا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار

وأوماً بسبابته إلى الأرض وهو يقول لنفسه « هذا هو المكان بعينه » وارتدى على الأرض دون أن يكثر ثلى كأنه لا يرانى أو كأنى لست معه ؟ فضقت لذرعا بهذا الحال ، وأسفت على مسابرتة ، وما ذنبى حتى أتكلف الصبر على كل هذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضة ولكنى أرانى كالأذى خرج لي ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هذا كبححت نفسى عن مطاوعته السامة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن المروءة أن يحترم الإنسان إحساساً لو كائن ما كان — يستغرق النفس الآدمية إلى هذا الحد ، حد الذهول ، ويستولى على كل جوانبها ، ويملا كل شعابها وينبض به كل عرق. وما يدرينى ؟ لعل هذا الإحساس ، مهما يكن باعته المباشر ، ثمرة لإحساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليه ! ومع هذا ، وعلى الرغم من ذلك هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت ياسيدى ؟ إنها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟ ! ولكنه كان خاطراً كخطف البرق مجاء حتى ذهب . فقعدت إلى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به لوجهه !! فاستوى قاعداً وهو يقول « إنى أعرفك شيطاناً ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فأنحيت له معتذراً ! فقهقه ضاحكاً وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد .

« لقد كان هذا المكان ساحراً وكانت أوراق الشجر والحشائش كالجديدة ليومض فيها ظلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة لاناثة وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر إليها مخافة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس ، قوية وكان يقينا لفحها هذا السياج من النبات ومن خلفه هذه الخراف بأعينها سوى أنها كانت مستلقية على الأرض لاتراعى ، وكانت الفراشات لا تكف عن الطيران من هنا إلى هنا كأنما حياها صغرها تأثير الحرارة التى تذبل ماهو أكبر منها . وكان بساتنا هذه الأغيصان الندية ، والناس يعمرون بنا ويدرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن فى شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و ... »

« وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغي أن أقول ماذا كنتم ؟ ؟ »

فلم يلتفت إلى استدراكي وقال :

« كانت لولو ... فهذا اسمها عندي ... ألا تعرفه ؟ »

« قد عرفته الآن ! » .

« ... كالتى يفيض قلبها بشيء تحبس نفسها عن الإفشاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عني وأسندته إلى كفها وأرسلت لحظها في الفضاء غير ناظرة إل شيء على التعيين وتركتني أصب في مسمعيها ما أهضب به وقد تجيبنى أحيانا ولكنى كنت أقرأ في عينها غير ما يجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت وكان الصامت أصدق الحديثين نعم فهى عجيبة فى تناقضها عجيبة فى ازدواج شخصيتها ، لينة النظرة ، جامدة الفم ، رضية الخلق ساكنة الطائر ، مكلومة الفؤاد هادئة المظهر تتناول كفها فلا تدرى أليئة هى أم صلبة ، وتتأمل محياها فتحس فيه الذائب والحامد ، والسلس والوعر ، والترف والحشونة ، والحرارة والفتور والرغبة والزهد ، والضعف المتناهى والقوة التى تغرى بقلة المبالاة وتدفع إلى عدم الاكتراث بما كان وهو كائن وما سيكون . ولقد استشارتنى رقة عينها فأمسكت عن إتمام ما كنت قائلا كأنما كان الكلام يعوقنى كالذى يخلع نعليه ويدعهما ويعدو حافياً ، وجذبتهما إلى بغتة وإن كان لا شك أنها كانت تتوقع ذلك وضممتها وطبعت على ثغرها قبله . واكنها ضمت شفيتها ولم تعاطى التقبيل ! وإن كانت عينها قد ظلتنا تلمعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش وقالت « لا ينبغي أن نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا . »

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدرأجنا » .

قلت « فقبلة ثانية أولاً » .

قالت : « حسبك واحدة » بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة . ثم

رفعت إلى وجهها فقرأت فى صفحته :

«إني اخشى أن أربك إذا أنا كشفت لك عن حدة رغبتى فى الاستسلام  
لعواطفى ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس أنه كان الأولى ألا  
أحى بهذه المفاتن إذا لم يكن من حقى أن أمتع بها . وهل وهبى الله إياها  
ليتمتع بها الناس دونى ؟؟ » .  
« ومع ذلك ألحت أن نعود !! » .

وأكب ينظر إلى الأرض برهة وجعل يقتلع الحشائش ويعبث بها  
ويقول :

« ولها نظرة إنكار أو شك تلقى إليك بها بجانب عينيها ، كلها تصديق  
وكلها تكذيب ، كأنما علمتها الأيام أن تستريب ولا تطمئن إلى ماتسمع وأن  
تعدد عبارات الحب والعطف ملقاً ودهانا ، أو لهواً وعبثاً ، ولكن شبابها  
يغريها بالركون إلى ما يدرك عقلها الذى نصبح قبل الأوان أنه «ألفاظ ألفاظ»  
كما يقول هملت ! فبالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمل زهرة  
ليس لها غير الحسن قوة ، وما تنوء به الشجرة الضخمة ! » .  
ثم التفت الى فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبي ؟ إنها لا تزال  
فى العقد الثانى من حياتها ! فلشد ما أحنى أن تذبل هذه العين وأن تخلو من  
المعنى لحاظها ! لقد جالسها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ  
خمس دقائق ! وشففتها مع ذلك تهمان أبداً بالإنفراج ، ولكن شيئاً يطبقهما  
ويعيد ما يحاول أن ينفذ من بينهما ، إلى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان  
مطبقتين ! ولقد قلت لها جادا « هنا شىء عجيب على هذا الصدر » فأدارت إلى  
بعض وجهها ونظرت إلى بمؤخر عينيها وقالت واللمعة شائعة فى العينين  
والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شىء ؟ » قلت « لا أدرى ؟ ولكن هنا  
شيئاً على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفها كالأسفة وقالت « لا !  
أبدأ !! » فالحفت فى المسألة وداورتها فلم يجدنى ذلك ولم أفر بباطل فليت  
لسانى كان فى فيها ! إذن لنطقت عنها ولرفهت عن هذا الصدر المثقل بمسا  
لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو إلا الظماً إلى الحب ؟؟ هو ذاك على التحقيق  
الظماً إلى ماتخلوها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها كخلق

الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهى فتاة غضة الإهاب تنأى بها ظروف لا حيلة لها فيها الآن على الأقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عنها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمرانها أن تنشد الحب وأن تنشد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها إليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناديها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ إنه لسان الجمال الذى يعيدنا جميعاً وصوت الحياة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الإذعان والامتثال . فكر فى هذا ثم أنكر وهز رأسك بعد ذلك إذا استطعت .

وبعد إطراقة قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أفسانى عليها ، وأعنفنى بها ، وأقل ترفقى بهذا القلب الحديد ، حين غلت لها وقد ساقنى الحديث إلى ذلك « أن فى وسعك أن تستغنى عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن تستغنى عن رجل » . ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعتذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت إليها بالعبارة عما فى نفسها وبأن دلتها بكلامى هذا على مكان الجرح من قلبها ووضعت أصبعها عليه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! » .

— « وماذا كان جوابها ؟ »

— « لم تجب بشيء سوى نظرة طويلة إلى الفضاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تنكر أن لها جنساً ! ولقد خاضرتها وأنا أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحدرت الشمس فلم تنح ذراعى عن خصرها ولم تتحرك لذلك شعرة واحدة فى بدننها ! فكأنى كنت مطوقاً بذراعى الحى هذه دمية لا تستطيع أن تحس حرارته » .

— « وماذا أنت منها الآن ؟ إني أخشى . »

— « وماذا أنا منها ؟ لا شىء على الخصوص ! أحب أن أراها من حين

إلى حين وأن أستشف نفسها وأطلع من عينها على المغيّب في ضميرها . وسم ذلك حباً إن شئت ، أو سمه لهواً فما يعينني كيف تصفه ، وما أعرفني عبأت قط بهذه الألفاظ . ولكنني لا أكتمك إني أعطف عليها وأرثي لها وأحسبني إنما أعطف على نفسي في شخصها فإن بي منها مشابه . غير أن بيننا حوائل تتعاضم المجتاز ، وجوناً عريضاً يعي ساقى أن تتخطياه . وليتني أدرى كيف أحيتها وأرد إليها روح الشباب الذي تقمعه الأيام قبل الأوان ! ولكنني كبرت وأسفاه . وفقدت أنفاسي حرارتها .. والنساء عندي كتب تقرأ وموضوعات تدرس لا جمال يعشق . ولقد كنت في زماني شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسى حلاوة ، ولكنني أصفيت بعد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبي « كأني من دمائي أشرب » .

قلت « قم بنا عن هذا المكان فقد أوجعت رأسي وسودت الدنيا في عيني . تالله ما أجهلك بالدنيا وبصاحبك » قال : « لقد كان لا بد لي من مكاشفة صاحب بما في نفسي وقد فعلت ، فاستحمقني إذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما أحفله كيف يكون مادمت أجهله » .

ونهضنا نعود فسمعته يقول في بعض الطريق « لقد كبرت » . ولا أدرى كيف حدث مني هذا : ولكنني رأيتني أبتمم وأدفع ذراعي حول خصره وأطوقه بها فانتفض مدعورا وصاح بي « أيها الشيطان اللعين » .

## نشأة الشعر وتطوره

كنت في ليلة أقلب ديوان ابن الرومي وأدير عيني في صفحاته متأملاً ورقها دون ماحوته من الشعر ولم يكن مرادى أن أقرأ شيئاً بل أن أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة لكن الأطباء يعطونني أن أجهد عيني بالقراءة على ضوء المصابيح . وما أدراك ما الأطباء هم الذين يقول فيهم اديسون على ما أذكر ، إن المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل أن يعرفوهم فلما ظهر الأطباء بينهم وكثروا — إلى حد — عندهم انقطعت الغارات ! ! ولترجع إلى صاحبنا ابن الرومي فنقول إنني بينما كنت أجيل عيني في ديوانه غير معتمد شيئاً على التعيين استوقفتني قوله من قصيدة يهجو بها البحري وكان معاصراً له :

قبحاً لأشياء يأتي البحري بها  
من شعره الغث بعد الكد والتعب  
كأنها حين يصغي السامعون لها  
من يميز بين النبع والغرب  
رقى العقارب أو هذر البناء إذا  
أضحوا على شعف الجدران في صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ولكننا نعرف ما يعني بهذر البناء على شعف الجدران فهي ما ينشدونه ويرددونه أثناء عملهم من الأغاني الساذجة وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالييت موضوعاً له قيمته في نشأة الشعب . فأما اليوم فكان في الأقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — أنا والأستاذ الدكتور حسين بك هيكل — في معبد الملكة حتشبسوت فيما يسمى الآن « الدير البحري » وهو معبد منقوب في الجانب الشرقي



من وادى الملوك وممتد شرقاً إلى الصخور التى تفصل الوادى عن سهل  
طيبة . إلى هذا المعبد أقلتنا مركبة ذات عجلات عريضة هى شر ما يحمل  
إنسانا فوق تلك الأرض الصخرية . وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من  
الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها  
طعامنا بين أعمدة البهو الأسفل عند مدخل المعبد وحولنا رسوم ونقوش  
محت الأيدى والأيام بعضها ولم يبق منها واضحاً سوى صف من الجنود  
يحملون عدا السلاح أغصاناً وألوية يقابلهم فريق من الرماة وإلى اليسار  
صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرايين وفوق هؤلاء وأولئك  
زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات . فلما أصبنا حظنا من الطعام  
رقدنا على الأرض وأسند كل منا رأسه إلى حجر سد مسد الوسادة .  
ولنا كذلك وإذا صوت فضى النبرات يصافح آذاننا فراعنا حلاوته وضاعف  
حسن وقعه ما يحيط بنا فى هذا الوادى القفر من الأطلال وما تثيره فى  
النفوس من الخوارج والذكريات وسألنا الحارس فقال هؤلاء عمال  
يحفرون الأرض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبراً ،  
وعادتهم أن يغنوا وهم يعملون فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالنار إلى هذا  
الصوت وكان صاحبه كلما غنى شطراً أجابه جمهور الفعلة ورددوا على  
أثره جملة لا تكاد تختلف يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه . وكان  
الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبي وتعيد الجماعة فحاولت أن أدون ما ورد سمعى  
من ناحيتهم ولكن بعد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل وضبط فى  
الرواية وعلى أن ما أثبتته من ذلك قد ذهب لأدري أين ؟

وهذا كل ما اهتديت إليه :

أنا أجول للزين سلامات	على حسب وداد جلي
خيبت الهوى على الباب	جلت الحبيب جاني
أتأربك يا باب كسباب	تهد من على

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون  
 منها على تبين ما أريد أن أقول غير أنه يعزى عن فقد ذلك أن القارىء  
 لا يعييه أن يجد بديلاً يقوم مقام ماضع منه ، وما عليه إلا أن يلاحظ النوتية  
 وهم يعملون في زوارقهم أو سفنهم أو العمال وهم ينقلون الأحجار أو يحفرون  
 أرضاً أو يجرون ثقلاً أو نحو ذلك فإنهم في أكثر الأحيان يغنون ويتسلون  
 بمثل ما كان جماعة العمال في طيبة يغنون ويتسلون ، وأكثر ما تجد ذلك في  
 القرى النائية عن الحواضر وفي حيناً يحتاج العمل إلى أيدٍ كثيرة تشتغل معاً  
 وفي وقت واحد غير أن هذه الأغاني ليس لها ضابط أو صورة نهائية .  
 إذ هي لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تنشأ وتتحوّل ويطرأ  
 عليها جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغني مقاطع منها قديمة على ألحان جديدة .  
 وقد ثبت ما يردده المشتركون في الإنشاد ويتغير ما يغنيه الفرد ، وفي وسع  
 المغني الذي يكون كالزعيم للجماعة أن يبتكر ما يشاء ويرتجله وأن يستحدث  
 في المأثور الذي يحفظه ويقدم ويؤخر فيه ويمضي في ذلك كله إلى غير غاية  
 مستمدّاً من ذاكرته أو من وحى الساعة أو من إلهام العاطفة التي تملكه  
 أو من هاتيك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال في مثل هذا الموقف .  
 والقارىء إذا تدبر عصور الشعر العربي خليف أن يتبين منها أن الارتجال  
 يكثر في أولها أي في العصور التي يكون الناس فيها متقاربين متشاكليين  
 لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء إذا ألغى نفسه بين أترابه وأنداده  
 اطمأن وأرسل نفسه على سجيته لأنه في هذه الحالة يضمن المقدار الكافي  
 من التعاطف إذ كان بين مماثلين له :

وهذه الأغاني التي نتكلم عنها كثيرة في المدن والقرى وإن كانت في القرى  
 أكثر منها في المدن . ولكن ما أقل ما يستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه  
 مثال لها وعنوان عليها ! ذلك أنها كالتيار العام قطرة منه أو ملء ما شئت عمقاً  
 واتساعاً ، ليس بالتيار ! كذلك يكتب أحدها مقطوعات يسميها من هذه

الأغاني القديمة المتجددة كموج البحر فإذا هو لم يفز بشيء لأنها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسفنا على صورة .

ودع الحاضر وارجع إلى الماضي وصور لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على القطرة لم يأخذوا من المدنية بنصيب ولم تقسمهم الصفات الشخصية والملكات العقلية طوائف ولم يفرق بينهم اختلاف المراتب وتباين الأعمال وتعدد الآراء . وتلك مرتبة من الحياة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعي موصدة ولا يجهل فيها المرء - أو لا يحس أنه يجهل - ما يجري في ذهن جاره أو رفيقه ولا يستحي أن يعرب عما يجول في خاطره ويجيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير إذ كانت حدود الفرد هي حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها . في هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشعر ؟ يكون - كما هو ظاهر بالبداية فيما نظن - عملاً من أعمال الجماعة كلها وملكا لها لا لفرد ، ويجيء تالياً للرقص والغناء وتابعاً لها ومتفرعاً عنهما وغير منفصل منهما فإن شككت في أن الأمر لابد أن يكون كذلك فقل لي أيهما تظن كان أسبق في تاريخ الإنسان : الحركة أم اللغة ؟ نحسب أن الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فإن الإنسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف أن له لساناً يمكن أن يكون أداة لنقل الإحساس أو الخاطر إلى زميله الإنسان فالحركات البدنية أسبق من اللغة على التحقيق . ولكن هل الوزن كذلك ؟ تقول نعم ولا تردد لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام في الحركات فهو أشد ارتباطاً وأسهل مسافة لحركات الجسم ، وما زالت الإشارات والحركات من متممات التعبير اللفظي إلى الآن ، واللغة ليست إلا أداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الأداة لهذا التعبير ، لأن العبارة عن العاطفة بالحركة الموزونة على تدفقها ، أسهل - ومن أجل ذلك كانت أسبق - من العبارة بالألفاظ التي انتظمت بها الأصوات وتعينت واستقرت هي معاني صارت مجبودة مألوقة . ومتى انتظمت

حركات المجتمعين واترنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم — لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الألفاظ مستوية في ترتيبها على وزن هذه الحركات ، وعلى ذلك يكون أول ما عرف الإنسان من الشعر هو عبارة عن لحن موزون يند عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على ما تتطلبه وتؤدي إليه الحركات التي يشتركون فيها ويؤدونها معا على نسق واحد وعن عاطفة عامة شائعة بينهم على السواء ، وليس من الضروري ولا من المفروض أن يكون لهذا اللحن معنى معقولا لأن كونه معقولا أو غير معقول مرجعه إلى الفكر ، ولكن العاطفة أسبق في تاريخ النشوء الإنساني من الفكر .

إذن كان الشعر لأول ما عرفه الإنسان ألفاظاً مجموعة تكرر ، وأسماء تتخلل الألفاظ ، وعبارات لها قيمتها الإيحائية عند الجماعة لا أكثر ، على الأرجح ، وصرخات تند بين ذلك ، مصوباً كل هذا في قالب موزون على حركات الجماعة في حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج أو وفاة أو غير ذلك ومعقول أن تكون الاشارات أو التلجين أبرز من سواهما في هذا الطور الساذج .

ثم ماذا ؟ ثم يأسى يجد عامل جديد يؤدي إلى التطور . كانت الجماعة متشاكلة الأفراد ولكن التميز يحدث ، ويقوى الشعور بالذات شيئاً فشيئاً ويزداد الإحساس بالاستقلال ويبرز الفرد تدريجاً ويأنس من نفسه مالا يأنس غيره من نفوسهم فلا يقنع بأن يبقى في حلقة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل ما لكل منهم ، ويندفع مجترئاً على التقاليد — لأنه لا يسعه إلا هذا — ويعلو بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلا ويمضون في حركاتهم ولكن عيونهم تتعلق به وأذانهم ترهف له فإذا به تستحدث مالا عهد لهم به ويدخل على ما كان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلاً يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال . فيحسن وقع ذلك في نفوسهم ويطيب لهم أن ينصتوا ولكن الطفرة محال كما يقولون فلا يصمتون

كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلما سكت .  
وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هي المؤلفة  
للأنشودة — إذا جاز إطلاق هذا اللفظ على ما كانوا على الأرجح يتصاحبون به —  
وليس للفرد الأمثل مالمسواه من الفضل . ولكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر  
على الرقص والإشارات وتجتزئ بسماع ما يصيبه فرد في آذانها وبترديد  
عبارة معينة لا تعدوها وصار عمل الفرد في ابتكار القصة أو الحوار أبرز  
وأظهر وهو يروي ويقول ما تحضره الظروف في ذهنه وتجريه في باله وعلى  
لسانه ، وهي تكتفى مما كانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد في حالته النفسية  
وبترديد ما يوكل إليها ترديده .

ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعلة تلدور بصعوبة في مبدئ الأمر  
ثم تزداد إدارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك في  
التأليف إلى الاختصار على التردد إلى صيرورتها معينة بحركاتها للفرد على  
المحافظة على الوزن ونمط لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفة منهم هذا  
بعده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بخناجرهم !  
ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه  
معاً حتى إذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتاً ينفرد هو بأكثر  
مقطوعاته ويشاركه الباقيون في بعضها وقد يغنى بعد ذلك موالاً لا يشاركه في  
غناؤه أحد ولكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار  
على تصور الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريباً  
للمسألة من الإفهام لا لتقيس هذا على ذاك .

وهكذا يخفى أثر الجماعة تبعاً للتطور ويظهر الفرد حتى إذا تألفت  
تأليفاً سياسياً وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفني المستقل عن الجمهور  
وصار أمر الشعر كله إلى الفرد وأصبح هذا الشعر ديواناً تقيد فيه الأخبار  
وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الأبطال فيتسع الأفق ویرحب المجال أمام

الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لا يلم قديماً في شعره بغير المرأة ، ويركض في حلبة الحوادث العامة التي تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ما له علاقة بالأسرة أو النفس . وهكذا . .

والجماهير يبقى لها شعرها الخلق بمستواها . ولكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الأفراد عن هذا المستوى ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدرُوا مزاياه التي انفرد بها وخلت به عن الجماهير . وإن أصدنا ليسمع الأنشودة في الأقصر ويسمع أخرى في القاهرة وثالثة في غير هاتين المدينتين فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وتلك واحد إذ لا خلاف ولا فرق إلا في النطق وإلا فيما تدعو إليه الأحوال المحلية التي لا تقدم ولا تؤخر ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى .

## المرأة واللفة

أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول !  
وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنسين في نظره أوجز تالخيص  
وأقربه إلى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن القافية جنت على المرأة  
وساعدها في جنائيتها عليها وظلمها لها تعصب الرجل لجنسه . ولعله بعد  
لم يعد ما كانت عليه الحال في زمنه ، أو لعله لم يقصد إلى المقابلة بين  
وظيفة الرجل في الحياة ووظيفة المرأة فيها وإنما أراد أن يؤكد عظم  
ما هو موكل إلى الرجل ويحسم خطره ومشقته ويبرزه في أقوى صورة  
بأن يرفع قبالة ظاهر ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد  
والاطمئنان والتنعيم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون قد شكا وتضجر  
من حيث أراد أن يباهى ويفخر ، غير أنه على أى وجه قلبت بيته وإلى  
أى تأويل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف في حكمه وقسا  
عليها فيه وليس في مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد  
ولكننا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به في تكوين هذه  
اللغة وفي تمكين رصيفتنا القديم من إرسال بيته هذا الدائر على الألسنة إلى  
يومنا الحاضر . وما إلى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقرب الساعة بضع  
مئات أو آلاف من السنين علمها عند ربك ، وأن نكرر راجعين إلى تلك  
الأيام البعيدة التي كانت الجماعات الإنسانية فيها ساذجة . أيام كان مكتوباً  
على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ،  
وعلى المرأة أن تقيم في مكانها لتعد الطعام ولتغزل وتهيئ الجلود وتصنع  
الأواني وتأني بالماء وتبنى الأكواخ وترضع الأطفال وتقوم على تربيتهم

بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغاب ويفترع الجبال وينحدر إلى  
الأنهار .

ولنفرض الآن أن الحرب نائمة وأن الجماعة تزاوّل شتى أعمالها في  
أمن وسكون . في مثل هذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته  
كائنة ما كانت ويذهب إلى الماء لصيد الأسماك أو يصعد في الجبل أو يمشي  
إلى الغابة ليقنص الحيوان . وقد يخرج الرجال في طلب الصيد بأنواعه  
زرافات ولكنهم لا يلبتون بطبيعة الحال أن يتفرقوا ويتشتتوا ولو قليلاً ،  
ويضطّروهم ما هم فيه إلى الصمت أكثر الوقت لأنهم وهم يجوسون  
الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطء وأن ينعوا الجلبة وأن  
يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والإشارة على الأكثر حتى  
لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو . والمفاجأة هنا نصف  
الظفر=ولا يكون الكر منجحاً إلا بتحريها وقدما قال ابن الرومي :

وليكن الكر على غرة والصيد في مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم في سمر فلا معدى  
لهم عن الصمت في غاراتهم ولو كانوا كردوساً متلاصقاً ليصيبوا الغرة  
ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك أنهم لا يتكلمون قط بل معناه  
أنهم أكثر ما يكونون في صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا  
وطرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقة لأن طبيعة المهمة تقتضى  
ذلك وتحتّمه إلى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون  
ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التي يرجون أن يبلغوها في  
يومهم وعما يقدرّون لأنفسهم من اللذة والمتعة في السعي وراءها وعما  
يتوقعون من سرور نسايتهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى وعباب  
محمّسة وقامات معتدلة ورعوس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض



ما كان في يوم سابق وربما تضاحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو يعدو وراء الطريدة أو رفته فخر إلى الأرض أو انكسر به غصن فهوى وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سروراً بما أصابوا ويتحدثون بفعالهم — هذا بسرعه وذاك بإحكام رميته وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب وهكذا حتى إذا بلغوا محلهم ألقى كل منهم إلى المرأة وبه من الزهو ما يصده عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم في أثناء الطرد والصيد يصمتون أكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصيد يستغرق أكثر النهار فهم أكثر النهار قليلاً الكلام . !

وندعهم في صيدهم ونعود إلى المرأة . فإذا بها بين أترابها لا يضطرها عملها إلى الوحدة . فهي على الأغلب تباشره في جماعة منهن قليلة أو عديدة وفي يد كل منهن عملها كائناً ما كان وهن في أثناء ذلك لا تستريح ألستهن في حلوقهن ولا تنقطع عن الجرى . كعادة النساء في كل عصر ومصر . فإن النساء أكثر كلاماً من الرجال . وقد يجلس الرجل إلى صاحبه وينتضي أكثر الوقت بينهما وكلاهما مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان في هذه الدنيا صامتتين ؟ إن المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا إذا عجز لسانها عن الجرى وانقطعت أنفاسها لأن الكلام لا يكلفها نصيباً عقلياً ، وإن الرجل منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه إلا أن يعجب لمن من أين يأتي بمادة الحديث ! لقد كنت أعد نفسي في الرجال مهذاراً كثير الثثرة فإذا بإحدى السيدات الفضليات تزغني صموتا ! ؟ . وما أكثر الرجال الذين يشكون من متاعبهم العائلية عجزهم عن مواصلة الحديث الفارع وتقصيرهم في واجب الثثرة !

واللغة الكلامية إنما تتقرر وتصلق ألفاظها بالتكرار ، وليس يكفي أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها ويستعملها مرة وإنما تشيع اللفظة ويتم استعمالها بتكرار الحاجة إليها وكثرة ترديدها من جراء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الإنجليزي المشهور مئات من الألفاظ من اللغة اللاتينية واستعملها في كتاباته وعاد بها عما يؤدي معناها من الكلمات الإنجليزية المستعملة وآثرها عليها لموافقتها لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه .

ثم مات جونسون وذهب في سبيل من غير دفنت ألفاظه التي نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعيش بعده منها إلا النزر الذي سد حاجة وملأ فراغاً . وكم في لغتنا العربية مثلاً من ألفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الأقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذقة من هذه الألفاظ الميئة ؟ ما حاجتنا إلى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لانكاد نذكر السيف ؟ فوافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولوكة مرة بعد أخرى . هذا هو الذي يذيع اللفظ ويشيع استعماله ويجعله مادة حية في اللغة . وفصل النساء في ذلك عظيم . هن التثرارات اللاتي يخدمن اللغة ويقررنها بالتداول ويشعن في الجماعة ويدرنها على ألسنتها ويثبتنها في الذاكرة . يجيء إليهن الرجل بقنصه ويقص عليهن ما جرى له في يومه وقلمما يعيد القصة ولكن المرأة تحكيها لأتربها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بإفاضة وأخرى بإيجاز وطوراً توشىها بأخيلتها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقي قصته ، أو بنعت ما تقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد إلى مائة موضوع آخر قد يعي الرجل أن يلح الصلة التي تربط هذه المواضيع بالحكاية الأصلية . أضف إلى ذلك ما لا تفتأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هي وأكثرها في الأطوار الأولى من نشوء الجماعات الإنسانية صناعي

أو أدخل في باب الصناعة مما عداها . والأطفال ؟ أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول إلى المرأة ؟ هي التي تغذى الطفل وتنشئه وتعامله الكلام بما لا تنفك تصبه في أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتنفم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغة وتعده أول ما يلزمه من الذخيرة في رحلة حياته . فليست المرأة فقط عاملاً لا يستهان به في تقرير اللغة اللامية وصفاها بل هي أيضا أول معلم نتلقى هذه اللغة عنه ونحذقها منه .

ولا نريد أن نقف هنا أو نقصر على هذا بل نجوزة ونقول إن المرأة من أكبر عوامل التوحيد في اللغات أو التشابه بينها . ذلك أن المرأة لم يكتب عاينها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وإنما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء في أي عصر كن يقاتلن إلى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم . ولكنهن مع ذلك كتب عليهن السبي . يلتقى الجيشان ويقتتلان ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما في الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب في أفقية المهزمين وأن يتعقبهم إلى ديارهم وأن يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنه ندر أن يقتل المنتصرون النساء وإنما يسبونهم ويحملونهم معهم في عودهم إلى محلاتهم في جملة ما يحملون من غنائم الحرب ويقتسمونهم اقتسام غيرهن من الأسلاب .

وقد كانت الحروب في الأزمنة السابقة أكثر وإن لم تكن على هذا أفثك أو أهول منها الآن وقل أن كانت تنهى حرب بدون سبي . بل لعلنا لا نخطيء جداً حين نقول إن الرغبة في السبي كانت من أكبر مثيرات الحروب وبواعثها .

فهل يحسب أحد أن الخود اللواتي كن يسبين في حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع ألستهن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواذهن

الكهائم ؟ لسننا نظن أحداً سيدعى ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسيية ومن صارت من نصيبه ؟ كان يستعصى ذلك في أول أيام المعاشرة وكانت الإشارات والحركات وملامح الوجه ونظرات العين تغنى في ذلك بعض العناء ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التي يسميها بالحركة أو الإشارة أو النظره أو غير ذلك مما يصحبها ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك . فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل في لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التعبير يؤدي ذلك مع التكرار إلى التقارب من بعض النواحي بين اللغتين .

ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة لإحداث هذا الاختلاط والتشابه بين اللغات . فقد كانت الهجرة كثيرة والخطف مستمرا ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر وكان سببها أعم لذلك كان من المعقول أن تكون المرأة صاحبة الفضل الأكبر في بذل الألفاظ وما تنطوي عليه من الإحساسات والخواطر .

وحق هنا لا نريد أن نقف . فإنه ليس يكفي أن تخرج اللفظة أو تمنحها أو تشتقها لما تمس الحاجة إلى العبارة عنه . فإن الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها أو اشتقاقها . وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها إلا بهذا الاحتفاظ ولا أعون على ذلك من المرأة . . ولا تنس أن كلامنا كله دائر على الماضي البعيد لا على الحاضر ولا الأمس القريب . وكما أن المرأة كانت أحسن معاجم اللغة ، وكذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الأجيال التالية . ذلك أن المرأة هي التي قامت بالصناعات اللازمة للإنسان بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب . وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية ، وقد طرأ عليها تحويل كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير . وهذه الحقيقة هي أن المرأة هي مخترعة الصناعات

الأولى : ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تراول المرأة أعمالها يوماً بعد يوم دون أن ينحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذي لا يقبل سواه هو أنها كانت تهذب بالكلام وتسح بلا انقطاع وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوته وأفتنت في ذلك وما هو بسبيله إلى المدى الذي استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعاقب بها من الكلام وصار جزءاً أصلياً من اللغة وأتيحت له فرصة البقاء وقديماً لاحظوا أن المرأة على فرط شغفها بالحديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن نقول أنها كالذاكرة للنوع<sup>١</sup> . وحسبك أن تتأمل فضلها في المحافظة على الأساطير والخرافات وأغاني الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها . ومن من الرجال يحفظ مثل ماتحفظه المرأة من الأغاني والأساطير ؟ إن القارئ خليك أن ينصف المرأة من هذه الوجهة إذا تفضل وذكر جلسائه إلى إحدى العجائز في طفولته وصدر أيامه وإلحاحه عليها في أن تقص عليه بعض ماتحفظ من الأساطير والحكايات المروية عن العفاريت والمردة والوحوش وما إلى ذلك . وهي التي تغنى للطفل لينام أو ليكف عن البكاء أو ليهدأ وتسكن نفسه كما لا يحسن الرجل أن يفعل ونحن الآن في عصر المطابع فلا يسعنا أن نقدر على وجه الدقة قيمة ذلك في العصور الخالية قبل أن توجد المطابع بل قبل أن يهتدى الإنسان إلى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه في تلك العصور كانت المرأة هي ذاكرة الجماعة ومكتبها وديوان أخبارها وأغانها وأمالها وحكمها إن كان لها من ذلك شيء قليل أو كثير : ومازلنا إلى الآن نرى المرأة أحفظ للأمثال وأشد إحاطة بها . وإذا تدبرنا ذلك كما ينبغي أن نتدبره أفيكون مخطئاً من يقول أن المرأة كانت من أكبر

العوامل في المحافظة على اللغة وفي صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو  
تبعاً لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . ثم وجوه أخرى  
بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطلبه ويعز مناله . ولسنا نستطيع أن  
نلم بكل أوجه البحث في مقال واحد ولذلك نرجى التتمة ولا سيما الفرق  
بين لغتي الرجل والمرأة ، إلى فرصة أخرى .

## بين السماء والأرض

كأس على ذكرى

قالت الفتاة للفتى — إن كان ابن خمس وثلاثين يعد في الفتيان  
« هذا أنا . . . قد جئت . . . »

فد إليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟ » .

« لا كبر ولا جفوة . . . وإنما أنا مغيظة » .

« منى ؟ » .

« كلا ! » .

« ممن إذن ؟ » .

« لماذا تسأل ؟ . . . من نفسى . . . » .

« مسكينة يافتاى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف » .

« لست آسفة على شيء . . . وهذا ما يغضبني ! ولو وجدت للأسف

مسا لكبرت في عين نفسى . . . » .

وكاتب الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من

صاحبه — وهما مستندان إلى سور السطح — غير صوته ، فقال :

« أنت في عيني كبيرة وجلييلة » .

فلان ما كان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقت

حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمينها على كتفه وأقبلت عليه

تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق أنه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت  
ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها في يده :

« وماذا فعلت يا فتاتي أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت  
تؤنسين وحشتي تحت عيون هذه النجوم ؟ » .

فرفعت وجهها إليه ورمته بعين مفتوحة كغمضة وقالت :

« أو هذا كل شيء ؟ » .

« كل شيء الآن . . . إلى الآن » .

ولبثا هنيهة صامتتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحمة النجوم ،  
ثم قالت :

« ماذا كنت تريد أن تقول لي ؟ » .

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فأربد وجهه ولكنها لم تره في ظلمة الليل ، ولم تدر ماذا عانى حتى  
عاد محياه يرف لها بينما كانت هي تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال :

« كنت أريد أن أقول إن هذا لذيذ » بابتسامة متكلفة .

« ما هو ؟ »

« كون يدك في يدي ! »

فانتزعها وقالت :

« لقد أنسيت أمها في يدك »

« لأنسيتها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع »



« تناسيا أذن ! »

« كلا ! »

« هل من سبب ؟ »

« لا ! » مطرطة طويلة .

وتناول يدها وسكتا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى .



وقالت « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعل ما ذا يا فتاتي ؟ »

« ألقاك هكذا ! هي الأولى والأخيرة ! »

فابتسم صاحبها ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه ، أكثر مما فيها من صباية الحب وقال :

« لا أدري أن سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسي على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عيني تأخذك حتى يتحلل العزم - في كل يوم أعرج أن أراد نفسي على مكروهاها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو أن تخطر في القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شيء سواك ، ولا يبقى لي مني إلاك ! » .

« وماذا تريد أن تصنع بي ؟ » .

« ماذا ؟ أريد أن أحملك معي وأنخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هذا ما أريد ؟ إن رأسي ليدور حين أرى أخاك أو ابن عمك أو ابن خالك أو أحداً من الخلق ينظر إليك ! ولكن لك قدرة على المبالغة والمتجافاة حين تشائين ، واني ليخيل لي أحياناً أن تناسخ الأرواح حتى وأنت أنت برونهيلده بعينها يحيط بها سور النار الذي حولها » .

« ليتنى كنتها ! ! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من يشد قلبها ! » .

« بحسبك غرائزك النسوية سورا من النار » .

« ولكن ألا تعرف أن ما تبغى عسير لا يقع في الإمكان ؟ فاجدوى هذا الذى نحن فيه ؟ » .

« أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حمقى وأنهم يضحون بك فى سبيل ... لاتضعى يدك على فى ! دعينى أتكلم ! إنهم يحولون دوننا تقدماً لغيرك عليك وقد علموا إنك لى لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محمولين على مكروهمهم ! » .

وفى هذه اللحظة دفعها الريح إلى صدره فأسكره قربها وأخذ منه شداً شعرها . فضحك ضحكة عصبية ورفع وجهها إليه وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من عناقه ويأبى هو أن يدعها .

« انك ... » .

وعضت شفتها وردت اللفظة التى همت بها .

« أنا أى شىء ؟ قولها ! اقذفى بها فى وجهى ! » .

« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعنى ! »

غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك فى ورقة وجذل وسكر حتى همست فى أذنه .

« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم » .

« لم تعته أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟ »

« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا . . »

« يا وحش ! قولها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

ضمير ؟ ياله من سؤال ؟ بالطبع لى ضمير !

« لا أراك تحفل به الليلة ! »

« أنا فى شغل عنه ! قبلينى ! »

« أى فكرة ؟ ؟ »

« أفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل »

« إذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

لم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبه ؟

والتفت حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها ،  
فهل هذا معنى أن تكون محبوبه ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟  
إنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلاً ! فبالت  
من يديرها ماذا أصابها ففترها وأفقدتها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ،  
وعلى أنها لم تعد تكثرث لذلك أو تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون  
فى عروقها !

« أمصغ أنت »

« نعم » بصوت تخفته عربدة الشفتين في نحرها .

« إني أعلم أنى وقعت من قلبك . لا شك في ذلك ، وإلا ما فعلت الليلة ما فعلت ، ولكن أية فتاة تستطيع أن تفتك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتعلك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أذكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأنانية . .

« بل قولى إنه الحب . . . » .

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . » .

« أو تحسبن أن نفسى ستطيب عنك ؟ » .

« أخشى ! » .

« لماذا ؟ » .

« كل امرئ ينسى القبله بعد أن تبرد شفتاه » .

« من علمك هذا يا . . » .

والتقت شفاههما في قبله طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت :  
« دعنى أذهب الآن » .

ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! أنا أيضاً أخشى أن تتسربى في الهواء إذا تركتك » .

« كلا ! لا تخف » .

وعاطته التقييل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها  
فسألها :

« أواققة أنت أنك تريدن أن تمضى ؟ » .

« كلا ! ولكنى واثقة أنه « يجب » أن أذهب » .

فخلها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفت إليه وهي تقول : « لا يشق عليك ما يقول أهلى ، وأيقن أنى . . على . . ولكن ليتنى أكون أنا على يقين من وفائك ! » .

ومضت أخف من الفراشة !



قال صاحبه :

« أنا صاحب هذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وإنى لأحييها فى كل شهر مرة - فى الليلة الظلماء المفقدة البدر - لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولأن الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ أريد لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن تجوم السماء ويرتد عما دوتها كليل حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى ، حين تنتقل العين فى أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولاً . . كذلك كانت ليلتى وكذلك أريد أن تكون ذكرها فى مثلها . فأصعد إلى السطح واتكى على السور وأنظر إلى السماء كما كنا ننظر . هى مفتونة بجهاها وأنا يكاد يسحقنى الرعب إذ أجيل عيني فى فيافها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كأنما كان يعينى أن أنقص عليها متعتها .

« ثقى إن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها ، وإنه لا شىء فى الأرض أو فى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضآلته أو لا شيءيته إذا شئت » .

فتدير إلى وجهها وتقول وهى لا تفهم حرفاً من كلامى . « ماذا يوجد

بين هذه النجوم ؟ » .

فأقول « يوجد — إن صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات قضاء  
مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد اوقيانوسات من الفراغ  
لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها . هذا ما يوجد ! » .

فتصمت ولا يبدو عليها أنها فهمت فأمضى وكأني أحدث نفسي وقد  
شعرت فجأة ، على كل حبا ، كأنما بيني وبينها بعد ما بين الأرض والمشي : .

« وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ! ويهول الخاطر أن  
يقذف به في أجوازاها اللانهائية . . . ليس جمالها الذي يسحرك بالخالد  
ولا الباقي ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظري هذا النجم الذي يكاد  
ينجو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق  
مثلا لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الخلال من دواعي الرثاء !! وتصوري  
هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصوري عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة  
خبا فيها كل ما كان يضيء !! تصوري عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة  
كافية من هذه الكواكب !! نحى عينك ! غضى بصرك من السماء إذا  
أردت أن تستبقى بشاشة نفسك ! » .

فتفرع وتقبن على وتسند رأسها الصغير إلى كتفي هذه وتريح خدها  
على جانب صدرى وتعلق يسراها بكتفي الأخرى فأمسح لها شعرها حتى  
يزايلها الخوف ، واني لأراها الآن كما كانت في تلك الليلة وإن كنت أنا هنا  
وهي هناك : وبيننا ما بيننا من الأبعاد . وآه لو أن كل ما بيننا فرسخ أو  
فراسخ ! إذن لأمكن أن نبسم ! وقد يعزيني — لو أن هذا مما يعزى —  
إننا ، سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا وإن الدنيا ستومض  
فيها عيون غير عيوننا وتنفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة وانها  
ستشهد أشجاء طريفة تندب ومسرات ومباهج حديثة تطلب ويستعز بها ، على  
حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب !

ولكنى أحيى هذه الذكرى على خلاف ما تنوهم ، فإن الهواء هنا لم يهف  
باسمها ولا خفق على موجاته للشدو بمفاتها ، والعيون التي تجتلى هذا الفضاء  
الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتطم على هذه الرمال ، وقدسها الدقيقة  
لم تطأ ذراتها — كلا ! ما من شيء هنا يعرفها أو يحمل ذكرها على صدره  
كما أحمل على صدرى حبها ، فسبيلي أن أعتمد على سور السطح وأظل كذلك  
حتى أعود وقد شاطرت ما حولي عدم الشعور بها ! » .

ثم أمسك وقال بعد إطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأساً على هذه الذكرى » .

## المفعول المطلق

ليسمح لي القارئ أن أكون كما خلقني الله ، وأن أسوق إليه الكلام على طريقي التي أوترها والتي تلائم مزاجي ولا تنافي ما بنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقني بعين لا تفتأ كلما وقعت علي شيء تنثنى مرقة إلى نفسي تدبر فيها حملاها مفتشة باحثة منقبة ثم يهتف بي هاتف من ضمير الفؤاد أن هات «المسطرة» فأمد إليها يدي وأذهب أقيس الأبعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لي أمس أن ذهبت إلى «إدارة الجريدة» في شأن لي فجاءني من وكلت إليه الإشراف على تحريرها في غيبي يسألني أن أراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها إشارة إلى اصطلاح نحوي فلما كان الليل آويت إلى فراشي وفي مرجوى أن يجبرني النوم من أوصاب ما أعانيه فرأيت في منامي ، وقلما أذكر أحلامي ، كأني بلمتي التي وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من أساتذتي ، رحمه الله ، يختبر الفرقة في «المفعول المطلق» ولكن الأستاذ كان فيما بدا لي أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ «الكبار» أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمي وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمي هذا الذي جره على زميلي ، أستاذاً لي في التعاليم الابتدائي أعياء أن يفهمني «المفعول المطلق» ويوقفني على «سره» ويحصل لي «لغزه» وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لي «يا ابن عبد القادر» — فأقول «نعم» .

فيسألني : ماهو «المفعول المطلق» ؟

ولم يكن من عادتي أن أحمل شيئاً — وبخاصة هذا المفعول المطلق — على ظهر قلبي من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفي مفتوح وعيني إلى وجهه ،



ولساني كأنما استل من حلقى ، ويدى تغمز جارى الحافظ الذى لا يهمل حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت أنى نجوت ، وكان يعرف أنى مجاج الإذن فيسألى الإعادة فأتلعم وألن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الإعادة ويقول « مثل » وهنا الطامة الكبرى ؟

« مثل » ؟ وكيف آتية بمثال لما انتهيت منه إلى اليأس من فهمه ؟ ! وكثيراً ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جارى ابلى على أن ينهض فى أثرى ويجيب عنى إذا أعياى سؤال غير متتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول إليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعهما وأتعد وأنجوه هذه الحيلة التى لم تكن تجوز إلا على هذا الحار المغفل ؟

مر بيالى هذا وما إليه من إحداث الصبا على عهد التلمذة ، كما تمر أشرطة الصور المتحركة على حين الناظر ، فقامت لنفسى — وأنا مستلق على فراشى — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن فى صدر أيامى فقد كان له شأن ضخم فى حداثة الدنيا أو من عليها من الأدميين وكما أن آباءنا الأولين لم يعرفوه إلا بعد تصور لا يعلم طولها إلا الله ، من مهانة أزم التعبير عما فى نفوسهم كذلك أنت « يابن عبد القادر » لا عيب عليك إذا كابدت منه نصباً .

والواقع أن هذا « المفعول المطلق » يمثل فى تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعدها الأفق ورحب على أثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة . واللغات ، كما يعلم القارئ أو كما لا يعلم ! — لم يجدها الإنسان تامة ناضجة مستوفية كل ما يحتاج إليه الرجل للعبارة عن مراده ، وإنما نشأت على الأيام واتسعت شيئاً فشيئاً على قدر الحاجة وهى لا تزال إلى الآن — وستظل — تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أداؤها . ومن شاء أن يتقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الإنسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه وليتأمل إليها كيف تعود ؟ أو إلى أى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على

وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نورده ؟ دلالتة القريية أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى لمل السلام قبل أن تنفرق، ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على أثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى يمتاز به ، فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ما تحتاج إليه من ألفاظ الحرب والمغامرة .



دارت بنفسى هذه الخواطر وأنا راقد ، وعينى تنظر من النافذة إلى القمر الذى ينام ضوؤه اللين على صدرى فددت يدى ، إلى المنضدة المجاورة وقد أنسانى النظر إلى القمر أنى لم أعد أعنى بإعداد الورق والأقلام إلى جانبي قبل أن أنام وأنى انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهاهم طيوف الظلماء ، وإنه ردنى عن ذلك وصرفنى عنه من جعل حاجتى إلى هذه الزجافات من الدواء .

## الذكورة والأنوثة

١٠ فبراير . . . الناس في هذه الأيام أتق أزياء ، وأنظف ثياباً ، وأبهج بزة منهم في أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاماً أفندياً يلبس طربوشاً مبطناً بالخواص والحريز ، أو يرتدى غير السترة الأستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بنيتها على الرقبة والتي يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، حتى الاحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم تكن الأقمصة الأفريقية تتعدد ألوانها وكان الأغلب فيها أن تكون ييضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الأعم — بأحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الحبة على أبدانهم أو بتحرى أن يكون لون « الحزام » مجاوباً لصبغة القفطان ، أو بأن تكون لفه « الشال » على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملقوفة فى ملاءتها ام حشوها — زف يعثره الريح فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات نعم لا فرق الآن مثلاً بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، سيتميزن بغير الأزياء . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضاً ليس فى الامكان أبدع مما كان !



١١ ... لا أدري ممن سمعت ؛ أو أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللحي وعلى الذباء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب — إن

صح الخبر - قد جدت على صوته نبرة تهكم لاذع - علينا نحن بني آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل أن النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال في بعض أرديتهن ، وأن الرجال يحلقن - معذرة ! فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم - يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الثياب مالا يخلص الهواء بينه وبين الجسم - أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع من تسبيحة الشكر ؟ إن الصحيح فسيولوجيا هو أن الآدمي خليط من عناصر الذكورة والأنوثة ، وأن نسبة هذا الخليط لا معروفة ولا محدودة ، وإن درجات التفاوت فيها كثيرة وإن هذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل أو كبير من الأنوثة ، ولكل أنثى نصيب كذلك من الذكورة ومن هنا يكون الشاب الذى هو فى رأى العين وفى إحساس النفس به وتقديرها لصفاته ، أشبه بالأنثى ، ومن هنا أيضاً النساء المترجلات أو اللواتى هن بالرجال أشبه ولإيهن أقرب .

والمعضل الذى يعنى أن احله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟ أم أصبحت الرجولة التى كانت تجدى عليهم قديماً فى حركة الجنسية لا تنيلهم شيئاً الآن ؟ أم ضعف إحساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للمزايا الجنسية الطبيعية ؟ أو اجعل السؤال من الناحية الأخرى : شهدنا زمناً كانت فيه المرأة إذا بدا منها خنصرها من تحت الملاء أو ما يماثلها ولمحت عين الرجل شهق وفهق وانتابته كالحمى فالآن تبدو له نصف كاسية - أو نصف عارية - وما استتر من جثمانها فى حكم الظاهر من فرط الدقة فى جعل التفصيل كفيلاً بعرض المحاسن وجلو المفاتن ، ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الاعجاب الفاتر ، فهل

تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجلوة لأنها تحس أن صفات الرجولة في الرجل قد ضعفت ؟ أم هي بدأت تتجرد وتنزبن شيئاً فشيئاً وسابرها هو في أحساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزبن درجة فدرجة فهي أبداً تعالج إن توقظ إحساسه بالحديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن إجابة ما يهيب به منه ؟



١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقدت الرجال وكلفت جنسهم من خسارة فادحة في مادة الرجولة لا تعوض في الاجيال . وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم في شتى الأعمال وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحفظن بالمنزلة التي رقبن لائها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة .

مثال لتأثير الحرب ... موافقة مجلس العموم الانجليزى بسهولة وسرعة على تحويل المرأة حق النيابة عن الأمة كالرجل وقد ظلت النساء في انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينلن حق التصويت فقط ! الخ الخ .

## الانسان مخلوق غير شريف

فبراير ١٥ ... ينحيل لى أن الشرف والتزاهة وعفة اليد وسائر مايجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الإنسان ولم يفطر عليه ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الإنسان بطبعه مخلوق غير شريف ! ! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الأوامر والنواهي والأقاصيص وما إليها مما يقصده به الحث على هذه الفضائل ومجانبة اضدادها . ولو أن الإنسان كان كذلك بفطرته وكان الأغلب والأعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفاً لما احتاج الأمر إلى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا إليه . وكثيراً ما خطرتلى أن أسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على مزاوله هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحداً يأمرك بخلافها مثلاً . فيقول : إذا استطعت أن تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى جيوب الناس يمتلئ فى جيوبهم ولا ينتقل إلى جيبك ! الخ الخ ! أليس ذلك لأن الأصل فى الإنسان هو التطلع إلى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على أن الأصل فى الإنسان هو هذا أن فى كل مصلحة كبيرة من المصالح - حكومية أو غير حكومية - نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر الناس إلى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدته نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون لأنهم أشرف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة ولست ممن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفى لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها .

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل إنسان كل إنسان . ولكن من العسير أحياناً أن تتركب الترام إلى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشتق من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وإني اعترف أنى إذا كنت على شيء من الشرف والذمة والأمانة والنزاهة فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لأنه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والإقدام ، أو بعبارة أخرى لأن نصيبى من الحب فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فى إنى لا أنشل ما فى جيوب الناس إذا لاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب أشق على وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها . وكثيراً ما تخالبنى التحف الثمينة فى الخوانيت من وراء الألواح الزجاجية فاشتى أن تكون لى بلا ثمن ، وأتمنى لو استطعت أن أمد إليها يدى ثم أمضى فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ! دع عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى ويفكك أعصابى حتى لأحس أن بى حاجة إلى من يأخذ بيدى وبعينى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ويتخذون ذلك حرفة ومتجرأً فيطير النوم من عيني إياى عدة حول ما يقدمون عليه من المخاطر . وما أظن بى لو أنى كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، إلا أن جبنى كان قهيناً أن يؤدى إلى تنبيه الشرطة والحراس إلى ماأنوى حتى قبل الشروع فيه ، لفرط ما أقدر أنه كان ينتابنى من الاضطراب .

والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكوناً فى النفس ، وإن شئت فقل بروداً فى الطبع ، وجرأة فى الحنان ، وقدرة على الاحتيال ، ومضاء فى العزيمة ، وليس لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى إذا غشنى إنسان عفواً أو عمداً وأعطانى قطعة مزيفة من النقود لأجروء - إذا فطنت إليها - أن أمد بها كفى إلى أحد على أنها صحيحة ، بل أخفيها عندى أو انتظر حتى أصبى إلى طريق مهجور ثم أطوح بها بكل ما فى ساعدى من قوة كأما

أريد أن أجعل بيني وبينها أطول ما يمكن من المسافة . وآه لو مررت بشرطى وهى لا تزال فى جيبي ؟ آه من الاضطراب الذى يصيبني ويخيل لي أن عين الشرطى قد نفذت من الثياب إلى حيث القطعة المغشوشة وأنه بهم أن يعدو ورأى ليقبض على ! وترانى حينذاك أسير وأتلفت وقد أضرب فى طريق غير طريقى لأتوارى عن هذه الأعين التى لا تمنعها كثافة الثياب أن تطلع على ما فى الخيوط من مغشوش ؟

وحدث مرة أنى سمعت رجلاً يباهى بأنه أنقذ ( جرسون ) قهوة قطعة مزيفة من ذات الخمسة القروش دون أن يفطن إليها فحسدته وتمنيت على الله أن يرزقني بعض هذه الجراءة والثبات ! وشر من ذلك وأدهى ، وادعى إلى الغيظ والسخط على النفس ، إلى ما استطعت قط أن أدع أحداً — تاجراً أو صرافاً مثلاً — يعطيني أكثر مما لي . وفى الناس من يستبضع ما شاء وينقد البائع الثمن ويتناول الباقي ويعده ويحده أكثر مما يستحق فيدفعه إلى جيبه فى هدوء تام ويمضى عن الدكان دون أن يختلج حتى جفن عينه . مثل هذا أغبطه ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف ! وتالله ما أحسن استقباله لما يخبئه به الحظ ! ما أبرع ركوبه للحد فى عباب حياته ! ما أشد شكرانه لما يناله بغير كد أو تعب !

واتفق مرة أن كان فى بيتى عمال يبنون حائطاً .. ، وكان صاحب البيت قد أنقذ أحدهم الأجرة مقدماً فاشتغل يوماً وانقطع أياماً ثم عاد فسأله أين كان فقال وهو جردلان والله يا أفندى الحقيقة أنى بعد أن أخذت الأجرة من عمى . . . . سهرت ليلتي تلك وشربت قليلاً ومن حسن الحظ أنى أنقذت الخادم ورقة بنصف جنيه فرد لي ثلاثة وثمانين قرشاً ظناً منه أنى أنقذته جنبها فحمدت الله الذى رزقني من حيث لا أحسب وأحييتها ليلة فى أثر أخرى .

قلت « نعم هذا حظ غريب ، ولكن ألم تنازعك نفسك ولو لحظة



أن تخبر الخادم المسكين أنه أعطاك خمسين قرشاً فوق ماله ؟ » .  
فحملق العامل في وجهي وصوب نظره في وصعده ثم حول وجهه  
عني والتفت إلى عمله دون أن ينبس بحرف . وما أشك في أنه كان أعمق  
ما يكون اقتناعاً بأنني مجنون ، من العبث الكلام معه .

وقل أن تجد من يصارحك بفساد بدمته كما فعل هذا العامل . والناس  
في العادة أكثر ولعاً بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً ما ينجيل لي  
إذ أحادث واحداً من سواد الناس في أمثال هذه الموضوعات أنني ولأياه  
الرجلان الشريفان في هذا الكوكب الحافل بالأندال .

## في الشعر الجاهلي

تأليف الدكتور طه حسين

أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وإن كان ما أثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر إلينا منه ، لا يختلف عن جنى غيره من العصور الإسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة إلى الحياة متفقة . والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يتورها تغير جوهرى . فما هو هذا العصر الجاهلى إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ومن ييغون أن يقيموا حداً بين الإسلام وما قبله ، أما مؤرخ الأدب فمعدور إذا أنكر أن له سمة يتميز بها وينفرد بالجاهلية التي انتهى إلينا ماروى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية إذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب إلا أن يقف حيالها متردداً شاكاً بل رافضاً كما فعل الأستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلى » .

ولكل أدب آفته الساذجة وحدثته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة - يصدق هذا على الجماعات صدقه على الآحاد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ في دنيانا هذه ولكن الأدب العربى ليس له أول يعرف ولا نشأة توصف إذ أقدم ما وقع إلينا منه - على قول الرواة - بشحم كلاه ، إن صح هذا التعبير ، ونعنى بذلك أن هذا القديم مستو بالغ أشده وأن الأطوار الأولى التي لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بها ،

كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تنأى شباها على النحو المأثور ، نقول إن هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل إلى العلم بها والوقوف عليها إلا تخيلاً وإلا بالطبع في التخيل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التي وقفنا على أصولها ونشأتها ، وإلا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية « فالشعر الجاهلي » وصف غير صادق لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التي غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أو ماقاله العرب لأنه شعر ناضج متساق الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم ما يمنع أن يكون الشعر قد قيل قبل الإسلام ، بل الذي يرفضه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر إلى من عاشوا في العصر الجاهلي صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل إذا سألت هذا الشعر عن نسبه ينتمى إليهم ويعزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأسلوبه بأنه دعوى دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولها الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » وطرح السؤالين جميعاً وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذني الدكتور طه على غرة بهذا الكتاب فما أعرفني قرأت شيئاً من أخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها إلا نازعني في أمره شك ضعيف أو قوى ، وإلا حكى في صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة . وأشهد أن الدكتور كان بارعاً في بسط رأيه وفي إبراز الشبهات التي تحوم حول هذا وتضعف الثقة بنسبته إلى الجاهليين ، وفي تأكيدها أيضاً . ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التي جاءت - على خلاف عادة الدكتور - خالية من كثير من حشوه المألوف ونحسب أن لا خلاف في ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التي يخرج بها المرء ، وأن من الحاقة أن نسترسل في الاستنامة إلى ما جاء في الكتب القديمة وإن كان كل شيء يدعو إلى الريب ويغري بالنقد ، وأن نرصد بأيدينا في وجوهنا أبواب التفكير مخافة أن يظن

بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، أو مدفوعين إلى ذلك بحكم  
 النزعة الإنسانية إلى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والإقرار  
 أيسر من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضاً . وما من أحد  
 نزح إلى النقد إلا اضطر أن ينبذ بعض ما يقع إليه وفي هذا الإطار  
 خسارة متوهمة .

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ما تكون بغیضة إلى القراء ، ولكننا  
 لا نعرف أحداً آخرى بالعطف وأحق بأن تلين له الأفئدة من الناقد ، فهو  
 لا يجد — كالكيميائي — كل شيء حاضراً مهياً في معمله ، وليس أمامه شيء  
 من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التي تغني عن الشهود وتقوم مقام المعاينة  
 بل عليه أن يفحص كل ماتقع عليه يده ليستجلي غوامضه ويمحص حقائقه  
 إن كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وأن يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط  
 إذ كان العقلي الإنساني نزاعاً إلى التساهل ميالاً إلى تناول ما يتطلب الدقة ،  
 بغير احتفال أو تدبر ، وما رأيت أحداً ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته  
 ولكن الإقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك أن تفكر في القرون الغديدة  
 التي مضت وعصور المدنية التي انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد في العالم  
 حتى في عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع في الأخطاء القديمة .  
 لأن النقد يجهد المرء عن اتجاه الذهن في العادة . وقد تعلم أن الميل المدني هو  
 التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى إليه من  
 الآراء والملاحظات .

ألسنا في حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيض ما يتأدى إلينا من  
 الإشاعات والأنباء التي لا نعرف لها مديعاً ولا تدرى ما مصدرها ؟ وقد  
 نشد أحياناً عن ذلك ونجرح إلى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمه  
 ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا إلا بدافع من سبب  
 خاص ، أما إذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل في ذاته ولا بعيد التصديق

ولم يبلغنا ما ينقصه أو ينفيه فانا نذرده ونفرح به وقد نضيف إليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارئ أن المرء حين يلتقي نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الأولى من شأنها أن تؤدي إلى الغرق . وأن السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقه ليس بالعادة الطبيعية وإنما هو شيء يكتسب .

وقد تخالف الدكتور طه إذا عز عليك التخلي عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب إليه إذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين إلا أن تقدر جهده وإلا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في أن الأكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين إليه ، غير أن الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله وكل ما يجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وإنما لكذلك في كتاب الدكتور .

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول إن بحث الدكتور طه قاطع في إثبات ما ذهب إليه وما نشايه عليه من الرفض ، ولكننا نقول إن حجته أقوى من حجة القدماء . وأن رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلي إذا أراد أن يصل إلى نتيجة يسكن إليها العقل ، وأنها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وأن أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ذلك أنه لم يوفق في التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة ، ولوزهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه .

ولا بأس من أمثلة تجلوه للقارىء ما نريد .

يقول الدكتور فى رسالته ان « امرئ القيس . . . . . يبنى وشعره قرشى اللغة لا فرق بينه وبين القرآن فى لفظه واغرابه ومايتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز؟ بل فى لغة قريش خاصة؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان وكان أبوه ملكا على بنى أسد وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكننا نجعل هذا كله ولا نستطيع أن نثبتة إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل .

وإذن فنحن ندور : نثبت لغة امرئ القيس الذى نشك فيه ! « إلى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرئ القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يبنى فهما يكن امرئ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محو تاماً ولم يظهر لها أثر ما فى شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة » .

فامرؤ القيس يبنى ، والشعر المعزى إلى امرئ القيس عدنانى اللغة قرشياً . وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الأبيات المنسوبة إلى امرئ القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وإن كانت كلها عدنانية قرشية !! رفض مثلاً هذين البيتين :

وليل كوج البحر أرخى سدوله      على بأنواع الهموم ليبتلى  
فقلت له لما تمطى بصلبه      وأردف اعجازاً وناء بكلكل ..

وقبل هذا البيت الذى يتلوها :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصبح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يعنى اللغة دونهما ؟ أفیه شيء يخالف لغة عدنان وقریش  
التي نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الإعراب وما يتصل بذلك من قواعد  
الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته  
اليمينية من نفسه محو تاماً فى هذا البيت فقط .

وقد وقع الدكتور فى مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة  
وعمر بن قميئة ومهلهل وابن حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ وإن اختلفت  
القبائل .

وهو مع جنوحه إلى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق  
وإن كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعنى بها زعمهم أنه خرج  
فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة وانتهى إلى غدير فيه نساء . فقال ما أشبه  
هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به : « يا صاحب البغلة »  
وعز من عليه إلا ما حدثن بحديث دارة جلجل قالوا فقص عليهن قصة  
امرى القيس وأنشدن قوله :

ألا ريب يوم لك منهن صالح ولا سباً يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعنى أنه مأنوس غير حوشى ،  
ويتكلم على المتانة والحزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب الذى يحتاج  
المرء فى فهمه إلى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغفر لرجل تذوق  
الأدب بله من يدرسه فى الجامعة ، ومن ذلك قوله عن قصيدة جليلة فى رثاء  
كليب أنها شعر « لا ندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر  
الحديث أن يأتى بأشد منه » « سهولة وليناً وابتذالاً ؟ » والأبيات التى  
يشير إليها هى :

جل عندى فعل جساس فيا حسرقى عما أنجلي أو بنجلي  
 فعل جساس على وجدى به قاصم ظهري ومدن أجلى  
 يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعاً من عل  
 هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول  
 حصنى قتل كليب بلظى من ورأى ولظى مستقبلى  
 ليس من ييكى ليوميه كمن أنمسا يسكى ليوم بنجلي

وهى أبيات ليست فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته أن لغة الكلام عند العرب قبل الإسلام كانت وعرة حوشية !! أنظر قوله « فإن فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيراً على أقل الناس حظاً من العلم باللغة العربية فى هذا العصر الذى نحن فيه ، وما هكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن » فن أدراك يا دكتور ؟؟ ويالها من صورة معكوسة اللغة فى ذهن الدكتور !!

وقد أطلنا جداً والصحيفة لا تتسع للأفاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتعبط الطلبة منه بأبحاث الأساتذة . فليته استغنى عنه . وأن الدكتور ليحسن جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل ، إلى النقد التطبقى أو الدراسات الفردية :



الشعب  
مؤسسة دار  
٩١ شارع قسبرالمين بالمشاهرة  
تليسون ٣١٨٥٠





١٥ قرشا

	إخصائيون في الطبوعات العساجلة	تصدر عن مؤسسة صحفية عربية	مطبوعات دار الشعب
	الإدارة: ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١		
رئيس مجلس الإدارة: السيد إبراهيم	الطابع: ٢١٨١٨-٢١٨١٩-٢١٨١٠ ديار القاسم - طينوت ٨٤٤٨١٠	التوزيع: مكتبة دار الشعب	

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م